

2.1.2020

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

د. حسام الخطيب

نزار قباني
أمير الحرية وفارس العشق

نــزار قــبــانــي
أمير الحرية وفارس العشق

د. حسام الخطيب

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

نــزار قــبــانــي

أمير الحرية وفارس العشق

الطبعة الأولى

1435 هـ - 2014 م

ردمك 978-614-02-1078-3

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING
هاتف الرياض: +966509337722
هاتف بيروت: +9613223227
editions.difaf@gmail.com

كنت أمير العشق
وكنت أسافر يوماً في الأحداق الخضر
كان هناك العطر الأسود والأمطار الأولى
والأزهار الوحشية
كان هناك عيون
تسبح مثل طيور النورس في دورتي الدموية
كان هناك شفاه مفترسات كالأصداف البحرية
...
كان هناك ألف امرأة في تاريخي
إلا أني لم أتزوج من بين نساء العالم
إلا الحرية

«تزوجتك أيتها الحرية»، الديوان الخامس والعشرون» ،1988.

شكر وتقدير

أقدم امتناني وشكري الجزيل لسعادة السفير صباح قباني شقيق نزار لتجاوبه الكريم في إمدادي بوثائق وتسجيلات ضرورية متعلقة بشاعرنا المبدع، ونرجو أن تسعف الأيام باكتشافات أخرى ذات أهمية تكمل ما يستحقه شاعرنا من تقدير تاريخي واستكمال للنافذة الحالية التي أردنا لها أن تكون ذات طابع شخصي وإنساني. وكيف لا؟ وهو شاعر لكل الأجيال كما يقول الكتاب التكريمي الذي صدر عن دار سعاد الصباح للنشر.

كما أوجه الشكر الجزيل للصديق الدينامي حسن حميد الذي لولا جهوده التطوعية المخلصة لما كان ممكناً إنجاز الاتصالات الشخصية والجوانب التقنية اللازمة للموضوع.

وتقتضي الأمانة أن أسجل شكراً وامتناناً وتقديراً لرفيقة العمر أم الأمين لإنجازها الجوانب التقنية اللازمة لطباعة الكتاب الحالي وإعداده للنشر، وصبرها على سوء خطي وعلى استدراكاتي الفوضوية، وذلك إلى جانب ملاحظاتها المفيدة وتصويباتها الدقيقة فيما يتعلق بالجوانب الحساسة في مثل هذا العمل الذي لا يحتمل الجزم، والذي بُني على اجتهادات شخصية وتذوّقية تقتضي الحرص والحذر، ولا سبيل إلى دعمها بالدليل القاطع، وبذلك استحقت لقب مؤلف مشارك بامتياز.

المؤلف

المحتويات

القسم الأول

القسم الثاني: نزار المبدع

القسم الثالث: حوارات ومساجلات

القسم الرابع: نزار العربي الفلسطيني

القسم الأول

1 - نزار الإنسان

1 - مدخل

أعترف أنني حين بدأت أحاول ارتياد عالم نزار قباني لم أنتبه إلى أنني أدخل كهفاً عميقاً عميقاً له - كما يقول المثل- أولٌ وليس له آخر، أو أدخل هدفاً ملأ الدنيا وشغل الناس... رحم الله نزاراً، فقد كان يدرك مدى استعصاء محاولة دخول الآخرين إلى عالمه، ولذلك بادر في أخريات حياته إلى كتابة سيرته الذاتية[1]،وبذلك «قطعت جهيزة قول كل خطيب»... وأصبح الاجتهاد بشأن عمق عالمه أقربَ إلى المعجزات، وإنني أعني ما أقول... ولكن مع ذلك تبقى النفس أمارةً بالسوء، إلا أنني أخيراً أقنعتها أن أختار نوافذ محدودة ومحصورة بنقاط تقاطعي المباشر مع دروب نزار الحافلة بشتى أشكالٍ النوافير المتداخلة، وهي تقاطعات محدودة المدى والأهمية كان نزار متألقاً فيها كعادته، ومتى كان نزار غير متألق؟! وحتى في أوقات حزنه التي ابتلاه بها القادر والقدر بفقده عدداً من أعزّ الأقربين ابتداء من رحيل أخته وأمه وأبيه ومن ثم ابنه وزوجته، إذ كان فقدهما من الفجيعة بمقدار يمكن أن يدمر أي إنسان ويحطم معنوياته... إلا أن نفثات مملكة الشعر أعطته فرصةً لكي يتابع وجوده ولكي يصبح أقوى فؤاداً، وأعمق حكمة وصموداً، وأوسع أفقاً وأرفع بياناً، وأعلى قمةً، وأوضح رسالةً وأشدّ تأثيراً في جمهوره الممتد من المشرق العربي إلى مغربه، وربما اقتراباً من فرصة العالمية... كل ذلك دون أن يهادن نزار أو يخاتل.

وهنا يجب أن نعترف أنه، من بين كثير من المبدعين في الوطن العربي، ظلّ

---

1 - نزار قباني : قصتي مع الشعر، السيرة الذاتية لنزار قباني، منشورات نزار قباني، إذ إنه كان رافضاً أن يترك الأمر لسواه

على مسافة واعية من الرياء للحكام وذوي الشأن، وكان كلما دُعي إلى بلد ما أو مناسبة ما يشترط أنه سيقول ما يريد قوله لا ما يريد داعيه. وأذكر حين وجّهتُ له الدعوة لزيارة قطر عام 1995 ، أنه أجاب دون تردد أنه يقبل الدعوة

بشرط ألا يُفرض عليه أي شرط: «إنني سأقول ما أريده، ولا شرط عليّ».

وبالطبع هناك شعراء وأدباء آخرون يرفضون أية شروط مسبقة على دعوتهم، أو الانصياع إلى رضا حكام متغطرسين، إلا أنهم قلة وفيهم من دخل السجون والمعتقلات وعانوا من قطع الأرزاق في بلادهم، وهذه آفة معروفة في البلاد العربية.

ومن جهة أخرى ينبغي أن ننوه بأن نزار كان متابعاً للثقافات العالمية ولاسيما من ناحية الأدب والموسيقا والفن، كما هو ظاهر في قصائده المتنوعة الرافلة بالمفردات الحضارية. وقد أتاحت له وظيفته الدبلوماسية فرصة ارتياد العالم من مشرقه إلى مغربه، ويترتب على ذلك أنه اطلع على ثقافات الآخرين وفنونهم وتعمق فيها وكذلك على أساليبهم وأذواقهم في الحياة اليومية، إلى جانب ما لديهم من مثل عليا، بل أحياناً على مدى تناقض سياساتهم مع هذه المثل، ولاسيما تناقض الغرب الاستعماري الفاضح بين مثله الذاتية وإنجازاته العلمية وديمقراطياته الخاصة وإبداعاته الفنية، وبين مطامعه الاستعمارية ونهبه الامبريالي الذي يكتسح به البلاد العربية وغيرها مما يسمى بلدان العالم الثالث.

وكان نزار صريحاً واضحاً إزاء هذا التناقض المخزي وكرر إدانته، وفي مقابلات إذاعية وصحفية عديدة أكّد أن اهتمامه بالمعلقات الشعرية وبإبداعات أبي الطيب المتنبي والمعري، وبتألقات ابن رشد والفارابي وإنجازات الحضارة العربية القديمة، كل ذلك لا يعني أنه لا يعبأ بالواقعية والبراغماتية والممالأة الدبلوماسية: «إنني ضد أي براغماتية تغتالني، وتصادر تاريخي وثقافتي، وتمحوني من خارطة العالم. إن موقفي ليس أخلاقياً أو شخصياً أو انتقائياً أو طوباوياً أو شعرياً، إنه موقف وجودي، والمسألة بكل بساطة أن أكون

أو لا أكون. إنني أعتقد أن السلام مع إسرائيل مستحيل ولو بعد عشرة آلاف سنة، فهذه الأرض لا تتسع لنا ولها أبداً، فإسرائيل تريد أن نقطع سلالاتنا عن آخرها، ونحن متمسكون بسلالاتنا إلى آخر طفل في الخليل ويافا ونابلس وبيرزيت». وبعد ذلك يضيف: «قضيتنا مع إسرائيل لا علاقة لها بالفلسفة والتنظير وعلم النفس والمواويل والقصائد... إنها قضية تتعلق بحياتنا أو موتنا، ولا مفاوضات أبداً مع الموت».

لقد كرر نزار هذا الموقف في مناسبات عديدة، وبأشكال مختلفة مع حرص على عدم إنكار ما وصلت إليه الحضارة الغربية من ديمقراطية ذاتية وتنظيم اجتماعي وإبداع في مجالات الموسيقا والفنون إلى جانب الحرية الفكرية.

ويجب ألا ننسى أن نزار كان يحمل رسالة لنفسه ولقومه ولعالمه من خلال بيانٍ ناصعٍ ورؤية خارقة وصراحة فائقة وقلب مفتوح. وكان اعتداده بالذات مصحوباً بغطاء من جماليات الإبداع الفني وإصرار واضح على الهدف النبيل. ويجب أن تفهم الأنا المتضخمة التي رافقت شعره ونثره على أساس حماسة لأهداف نبيلة ولاسيما طموح خاص إلى تأميم الشعر وتوظيفه وإيصاله لكلِّ الناس، وفي ذلك يقول: لو سمعت أن طفلاً عربياً في «نواكشوط» لم يفهم بيتاً من شعري، فمن واجبي الذهاب والاعتذار إليه، على اعتبار أن التقصير في ذلك هو تقصيري، فربما كانت صياغتي الشعرية غير موفقة وغير مناسبة ولذلك لم يفهم الطفل شعري.[2]

ولعل هذه الوقفة النبيلة تذكرنا بتغير المفاهيم مع مرورِ الزمن، إذ يُنسب إلى الشاعر العظيم أبو تمام أن رجلاً اعترضه قائلاً: «لمَ تقول ما لا يفهم؟» فأجابه الشاعر: «لمَ لا تفهم ما يُقال؟».

ومن خلال هذه الواقعة يمكن أن نستنتج أن شهرة نزار الفائقة تعود إلى حرصه على تقديم أدق المعاني من خلال أسهل العبارات، وأحياناً من خلال التكرار والاستعانة بالصورة الجميلة المؤثرة، وبذلك استطاع أن يجلب مختلف طبقات القراء، وأن يحقق حلمه الواعي بأن يكون شاعرَ المرأة والرجل،

---

2 - من مقابلة له في مجلة الشروق، ع 86، 1993/11/25 : ص 44

والشاب والشيخ، والقاصي والداني، ربما لأنه كان يرمي لما هو أبعدُ من فتنة الشعر. وكفى...

وفي أخريات أيامه توصل بكبريائه إلى الكثير مما يتمناه المبدع في الوسط العربي، وهو أن يسعى إلى تقديره الحكام وذوو الشأن الثقافي والاجتماعي بدلاً من أن يسعى لهم.

أخيراً أكرّر أن الكتاب الحالي هو أبعد ما يكون عن مقتضيات السيرة، وذلك احتراماً لروح نزار، لأنه لم يحبّ أن يكتب أحدٌ سيرته، وسارع إلى تدوين سيرته الذاتية في كتاب واضح : «**قصتي مع الشعر، سيرة ذاتية**»، نزار قباني، قبل وفاته بتسع سنوات، ثم طبع عدة طبعات. لذلك أتى الكتاب الحالي انتقائياً ومكتفياً بالمودة والإعجاب.

وقد كتب الكثير الكثير عن سيرة نزار ونُشرت دراسات عديدة عنه، وهناك عشرات المواقع الإلكترونية التي تتابع وقائع حياة نزار من الألف إلى الياء، وهي متفاوتة في دقتها ونقاط تركيزها على طبيعة حياته، وبعضها مفتوح للإضافات والاقتراحات، وهذا أمر جيد وحيوي، ويسمح للأجيال الصاعدة أن تبدي رأيها في فهم شخصية نزار ومستويات إبداعه، ولاسيما من ناحية سلوكه الشخصي الذي يظل عرضةً للأخذ والرد، حسب معتقدات وثقافات الأجيال التي عاصرته وكذلك الأجيال المتجددة.

وبما أن نزار، كما أشرنا سابقاً، كان إنساناً نبيهاً جداً وحادّ الذكاء وقدّر له، كما أشرنا سابقاً، أن يجوب أطراف العالم وأن يتفاعل مع ثقافات مختلفة ومجتمعات متباينة في أذواقها وعاداتها وآدابها وتنوّع فهمها لقضايا المجتمع والمصير الإنساني، وبما أنه كان دائماً واسع الأفق وحريصاً على ارتياد لغات الأمم الأخرى وثقافاتها، وفي الوقت نفسه حريصاً على مصير أمته ونهضة مجتمعاتها، فإن المقارنة دفعته إلى أن يكون حاداً في أحكامه وانتقاداته لمظاهر التأخر والضعف في مختلف مظاهر بني جلدته، ولذلك قدم رؤيته الحساسة لما وجده في مجتمعات الكرة الأرضية من الصين إلى أوروبا إلى أمريكا.. وكانت زياراته غير محصورة بمجرد النزهة، كما أنه عاش خلال أخريات حياته في سويسرا ثم في بريطانيا، بل كانت جميعاً مصدر إلهام له في مجال توسيع آفاق قرائه، مع التذكير أن عمله الدبلوماسي أيضاً في

مجتمعات متعددة أعطاه فرصة جيدة لفهم الآخر، وللتمتع بمباهج الحياة في تلك المجتمعات والتعمق في تعرف لغاتها وطبيعتها الحضارية؛ لأن كلمة الحضارة كانت دائماً أبرز اهتماماته، كأنه حاول دائماً أن يتوصل إلى طبيعة الحضارة في البلدان التي يزورها أو يعمل فيها. ولو أحصينا كلمة «**الحضارة**» في نثرياته ومقابلاته لأدركنا أن همه الأول هو الشأن الحضاري، ويُفهم من كثير من أشعاره أو كتاباته النثرية أن أهم شيء يميز الأفراد والمجتمعات هو قيمة الحضارة وطبيعتها، وكم كان نزار يستعمل كلمة حضارة وحضاري لوصف المجتمعات والحضارات، حتى أنه يمكن القول مقابل وصف نزار الشائع بأنه شاعر المرأة، أنه شاعر الحضارة.

وربما كان أحسن نموذج لحضارته هو تبكيره في كتابة سيرته الذاتية «**قصتي مع الشعر**»، التي تمثل ذوقه وثقافته وآراءه إلى جانب وعيه لقضايا حياته ونشأته ومجتمعه ، ولكن أهم من ذلك حرصه على عرض آرائه وما آلت إليه قناعاته في مراحل حياته الفنية بالارتيادات والارتحالات وتنوع اللغات والمجتمعات.

وهنا أود أن أشير إلى أن مقدمة «**قصتي مع الشعر**» إلى جانب أماكن أخرى تؤكد تأكيداً صارخاً عدم ثقته بالنقاد. وفيما يلي «**إضاءة**» أراد لها نزار أن تنبه إلى عدم ثقته بالنقاد[3]، على النحو التالي:

«**أريد أن أكتب قصتي مع الشعر قبل أن يكتبها أحدٌ غيري**».

«**أريد أن أرسم وجهي بيدي، إذ لا أحد يستطيع أن يرسم وجهي أحسن مني**».

«**أريد أن أكشف الستائر عن نفسي بنفسي، قبل أن يعضّني النقاد ويفصّلوني على هواهم، قبل أن يخترعوني من جديد**».

وحين يقرأ الإنسان هذه السيرة المثيرة يكتشف جانباً آخر من إبداعه قلّ من يلتفت إليه بعد طغيان شعره. وقد وجدتُ في نثره جماليات تنافس جماليات نظمه أحياناً، وقادني ذلك إلى تساؤلات حول التفريق المصطنع بين الشعر والنثر، ولاسيما في الثقافة العربية التي وضعت حداً فاصلاً بين التوأم وميزت «الشعر» الذي هو «**الكلام الموزون المقفى**». وكانت توحي عادة بقصد أن

---

3. في عدة مناسبات أخرج نزار كاتبَ هذه السطور من دائرة المغضوب عليهم ، وأشهد أنه تحمّل بأمانة كثيراً من ملاحظاتي «المتأدبة» في كلامه عن النقاد !!. كما سيبدو في رسائله في هذا القسم.

الإبداع القولي الجمالي يكاد يكون بالطبيعة أقوى إغواء وأبعد غوراً وعمقاً في الشعر لا في النثر. وتمثل ذلك في العصور العربية القديمة في إقدام القبيلة أو الأسرة على الاحتفال والفخر بولادة الشاعر دون أن تلقي بالاً موازياً للناشر مهما يكن إبداعه اللهم إلا في حالة الخطابة «النثرية».

ولم تكن هذه الظاهرة محصورة بالمجتمع البدوي وحده بل امتدّت إلى العصور الحديثة في حضارات كثيرة، وظل الشعر هو المتميز بين فنون القول الأدبي على الرغم من تضاؤل مكانته نسبياً بالقياس إلى بروز الفن الروائي والمسرحي مع تفاوت واضح بين الحضارات وازدياد الاهتمام المدني بشتى أنواع الفنون التي لها أول وليس لها آخر.

وبالطبع لا ننسى طغيان العلم والتكنولوجيا على الأدب في المجتمعات الأكثر تطوراً في الحضارة.

وفي ظل كل هذه التطورات المتموجة يبرز شاعر مبدع مثل نزار قباني ليقدم لجمهوره من عشاق الشعر «**قصتي مع الشعر**» في عرض كثيف صريح مثير يعبر عن الوجدان الروحي والصراحة لشاعر المرأة وشاعر الوطن وشاعر الجمال وشاعر الإباء بشكل قلّ نظيره في المجتمعات العربية المحتشمة التي اعتادت على كمّ الأفواه تحت تهديدات العيب أو الخوف، الاجتماعية والسياسية والدينية.

بصراحة، أظن أن هذه مجرد خواطر يمكن أن يحسّ بها أي إنسان يقرأ السيرة الذاتية لنزار قباني كما قرأها كاتب هذه السطور فوجد فيها قسطاً غير مألوف في مجتمعنا من الصراحة والمواجهة يكاد يضاهي متعة قراءة شعر نزار.

أتراني أبالغ! ربما..ومع ذلك أسمح لنفسي أن أقدم إطلالةً مختارة من كتاب نزار «**قصتي مع الشعر**» ربما تضارع صراحتها الفائقة قسطاً كبيراً من رسالة نزار الشاعر، وترقى إلى أعلى مستوى من الصراحة والإثارة الجميلة.

وسوف أقدم النص كاملاً احتراماً لرغبة نزار المعلنة في أن يتولى هو بنفسه عرض أفكاره خوفاً من تعرضها للتشويه على يد المفسرين.

أ . سقوط الوثنية الشعرية

هل هناك قصيدة عربية حديثة؟

هل نستطيع أن نقول إن الأرض التي مشت عليها القصيدة العربية خمسة عشر قرناً قد ضربها زلزال مفاجئ، فغيّر تركيبها العضوي والجيولوجي تماماً؟

الأكيد أن القصيدة العربية قد انفصلت عن شجرة العائلة، وهربت نهائياً من «بيت الطاعة» ، ووصاية الأجداد .

والأكيد الأكيد... أن القصيدة العربية اكتشفت صوتها الخاص بعد أن كانت مجموعة من العادات اللغوية والبلاغية، اخذت مع مرور الزمن شكل المسلمات الدينية التي لا تقبل الجدل والنقاش.

وباستثناء الأصوات المتفردة فإن غالبية القصائد العربية كانت في حقيقتها قصيدة واحدة، تنقل عن نموذج محفوظ في الذاكرة وسابق للتجربة. وبرغم أن الاسلام اقتلع الوثنية وصفّى قواعدها، إلا أن الوثنية الشعرية بقيت صامدة، وبقي الوثنيون يحكمون اللسان العربي ويسيطرون على حركته بقوة الاستمرار والوراثة. وبموت العصر العباسي دخل الشعر في العدمية المطلقة وصارت القصائد موتاً مكتوباً.

ولقد استمرت القصيدة / الموت متمددة على حياتنا خمسة قرون، لا يجرؤ أحد على دفنها. وكانت القصائد في تلك الحقبة كأضرحة الأولياء، لا يسمح لأحد بتدنيس حرماتها والاعتداء على مقدساتها.

وحين خرج الإنسان العربي في مطلع العشرينيات من غرفة التخدير، وبدأ يستعيد وعيه الوجودي والسياسي، ويسترد تفكيره المحجوز عليه، أدرك أن وضعه الجديد يحتاج إلى كلام جديد، وأن الخروج من ثياب عصور الانحطاط وعقلية عصور الانحطاط، وقبل كل شيء من لغة تلك العصور ومفرداتها.

إن التحولات السياسية العنيفة التي تعرضت لها المنطقة العربية في مطلع هذا القرن ماكان يمكن أن تتمّ بمنأى عن تحولاتٍ مماثلة في عقل الإنسان العربي وفي لغته...

ومن هنا كان على القصيدة العربية أن تنسجم مع الثورة أو تستقيل، أن

تتقدم نحو المستقبل أو تدفن نفسها في ضريح التاريخ وتتحول إلى ذكرى.

والواقع أن القصيدة العربية وصلت في نهاية القرن التاسع العشر إلى سن اليأس، وتحولت إلى عانس فقدت أملها بالزواج والإخصاب.

إذن، كان لابد للقصيدة التاريخية أن تنسحب بعد أن أدركتها الشيخوخة وأصبحت ثمرة من الخشب لا عصير فيها. وهذا لا يعني بشكل من الأشكال أن القصيدة الحديثة هي البديل التاريخي للقصيدة التقليدية، إنها على العكس نقيضها والقطب المقابل لها.

فحين ظلّت القصيدة القديمة خشبةً تعوم على سطح اللغة، ونوعاً من أشغال الإبرة والحفر على النحاس، ورحيلاً مضجراً داخل مملكة النحو والصرف والعروض، ونقلاً فوتوغرافياً للواقع بالأبيض والأسود، ألقت القصيدة الحديثة عن ظهرها هذه التركة الثقيلة وقررت أن تنفصل عن مسقط رأسها وتهجر البيت الأبوي.

أخطر ما فعلته القصيدة العربية الحديثة هو:

1 - الخروج من الزمن الشعري العربي الواقف إلى زمنٍ تتمدد أجزاؤه وتتسع في كل لحظة.

القصيدة الحديثة جاءتنا ومعها زمنها الخاص بعد أن كان جميع الشعراء العرب يسكنون في زمن واحد كما تسكن القبيلة في خيمة واحدة وتغرف الطعام من إناء واحد. وهذه السكنى في الزمن الواحد جعلت أعمار الشعراء واحدة، سواء من ولد منهم في القرن الثالث أو العاشر أو الثالث عشر للهجرة.

2 - قادت حركة عصيان خطيرة ضد كل العادات والأنماط اللغوية والبلاغية التي التصقت بها ولادياً. فالشاعر العربي الحديث هو الذي يكتب لغته وليست اللغة هي التي تكتبه. وبعبارة أخرى لا يرتبط بأي التزام سابق يجعله موظفاً عند مفردات قصيدته.

3 - لم تعد وظيفة القصيدة الحديثة أن تعلمنا ما هو معلوم، وتنظيم

لنا من جديد ما هو منظوم. صارت وظيفتها أن ترمينا إلى أرض الدهشة والتوقع، وتسافر بنا إلى مدنٍ الغرابة. وبهذا المعنى لم تعد القصيدة انتظاراً للمنتظر... بل أصبحت شوقاً لما لا يأتي وانتظاراً لما لا ينتظر.

4 - تحررت القصيدة الحديثة موسيقياً من الجبرية، ومن حتمية البحور الخليلية ووثنية القافية الموحدة، وكسرت إشارات المرور الحمراء التي كانت تعترض حركتها وتقص أجنحة حريتها.

موسيقا القصيدة الحديثة ليس لها نص مكتوب ولا تدوّن كما تدوّن المقامات والبشارف والموشحات، ولا تعزف عزفاً جماعياً كما كشفت القراءات الشعرية التي قدمها الشعراء العرب المحدثون. ذلك لأن موسيقا هذا الشعر تأتي من فعل الكتابة نفسه ومن المعاناة المستمرة والمغامرة مع المجهول اللغوي والنفسي، لا من التراكمات الصوتية والنغمية المخزونة في آذاننا الداخلية بشكل واهٍ وعضوي. ولأن موسيقا الشعر الحديث هي مغامرة شخصية بين الشاعر والعالم، وبين الشاعر واللغة، فلا يمكن التكهن بالصيغة النهائية التي ستصل إليها القصيدة العربية في المستقبل...

والشيء الأكيد أنه كلما كبرت الحرية ازدادت الاحتمالات وربح الشعر مساحات جديدة من الأرض لم يكن يحلم باستملاكها. وليست قصيدة النثر سوى واحدة من الجزر الجميلة التي أهدتها الحرية للشعر العربي الحديث.

5 - هندسياً تغير المخطط العام للقصيدة العربية تغيراً جذرياً.. أُزيلت الجدران الداخلية والحواجز العازلة التي كانت تجعل من القصيدة القديمة فندقاً بمئات الحجرات وناطحة سحاب بمئات الطبقات... القصيدة الحديثة مهندسة بشكل مختلف يجعلها أفقاً بحرياً مكشوفاً يندمج فيه الماء والسماء والرمل وحشائش البحر وصواري المراكب، في زرقة موحدة.

وكما في الغابات الكثيفة الشجر والورق وكما في السمفونيات العظيمة، ليس ثمة انفصال بين الجزء والكل، بين الشجرة ومحيطها الشجرة، وبين النغمة ومكانها من الإيقاع العام، فإن بيت الشعر العربي المنعزل كقلعة أثرية، والمكتفي اكتفاء ذاتياً بجمال صورته وبراعة صنعته، أو مأثور حكمته، لم يعد

يشكل أي أهمية استراتيجية على خارطة الشعر الحديث حيث الشاعر يحترق في جدار العالم، ويضيء كالبرق وجه الأشياء... دون التوقف على محطات التموين الصغيرة التي كانوا يسمونها أبيات القصيد.

6 - صارت القصيدة سهماً باتجاه العمق بعد أن كانت دائرة مرسومة على وجه الماء تتفلش كلما اتسع قطرها. وهذا التحول في الحركة من البرانية إلى الجوّانية ومن يقين الحواس الخمس إلى شطحات الحلم، وتركيبات العقل الباطن، ومن اللمس بأصابع اليد إلى اللمس بأصابع الحدْس، ومن الإضاءة البدائية المباشرة إلى الإضاءة العصرية التي تتقن لعبة الظل والتمويه، جعل القصيدة الحديثة أكثر من بعد واحد.

كل هذه الانقلابات في بنية القصيدة العربية الحديثة تمت بشكل انفجار مخالف لكل قوانين التاريخ الأدبي وتوقعاته. وأكاد أقول إن ولادتها بهذا الشكل المباغت كانت ولادة لا منطقية، بدليل الذوق العربي العام لا يزال مبهوراً أو مدهوشاً أمام الطفل الجديد الذي ليس في عينيه شيءٌ من ملامح أجداده...

7 - لأن القصيدة العربية الحديثة تتعامل مع اللا منتظر والمجهول فهي قضيةٌ صعبة، تأليفها صعب والدخول إليها صعب.

القصائد القديمة سهلة لأن طبيعتها مستوية ومكشوفة، وهندستها العامة لا تحتمل المصادفات ولا المفاجآت، فهي مجموعة مقننة من المهارات التشكيلية والتزيينية، يستطيع كل من تمرس بها أن ينتمي لنقابة الشعر.

ومن هنا كانت الكتاتيب والمساجد والتكايا والزوايا والمقاهي والجمعيات الخيرية وحلقات محو الأمية، هي الأكاديميات التي تخرج منها ألوف النظّامين العرب.

8 - الشعر الحديث حمل إلينا التعب، لأنه حمل الينا السر وطرح الأسئلة وعلمنا ما لم نعلم. بينما الشعر القديم أو أكثره على الأقل علمنا ما نعلم وأجابنا قبل أن نسأل، ورمانا على سجادة الكسل والطمأنينة. والشعر العظيم لا يتعامل مع الطمأنينة أبداً. وبكلمة أخرى إن الشعر العظيم لا يتوخى سلامة

القراء، بل يتآمر على سلامتهم ويضعهم في منطقة الخطر.

9 - خرج الشعر العربي الحديث من الموالاة إلى المعارضة، واستقال من وظيفته القديمة كمغنٍ في جوقة الملك، أو كسائس خيوله أو كمرفّه عن زوجاته.. ولذلك يعيش شعرنا اليوم منفياً خارج المدن التي ترفض أن تتغير، ويعيش الشاعر في حالة تصادم مستمر مع السلطة التي تريد أن تدجنه وتستأصل غدد الرفض فيه، وتجعل منه صوتاً في كومبارس وزارات الإعلام. إن النُظم بشكل عام تقف بوجه الشاعر لأنها تمثل الاستمرار والثبات، في حين يمثل الشاعر إرادة الحركة والتجول. وهكذا تنقطع خيوط الحوار وتنعدم الثقة ويرج اسم الشاعر في لوائح المخرّبين والفوضويين والخارجين عن القانون.

10 - تجاوز الشاعر الحديث أيضاً حدود القبيلة وتفكيرها المحلي وهمومها الصغيرة، وساعدته وسائل الحضارة الحديثة، وتقلص حجم الكرة الأرضية والانفجار الثقافي والعلمي في العالم على أن يفكر تفكيراً كونياً ويحسّ إحساساً كونياً، ويكون جزءاً من فرح العالم ومن حزنه.

إلا أن خوفي الوحيد على الشعر الحديث ناشئ من تشابه نماذجه واصطلاحاته ورموزه، بحيث أصبحت قراءة قصيدة واحدة من هذا الشعر تغنيك عن قراءة بقية النماذج. وهذه الظاهرة شديدة الخطورة لأنها ستدخل الشعر الحديث مرةً أخرى في دائرة الإعادة والتكرار.. وبالتالي فإن القصيدة الحديثة ستأخذ الخط البياني نفسه الذي أخذته القصيدة العمودية وتدخل في مدارها المغلق ذاته.

ب . نزار قباني في مرآته «مقتطفات غير حرفية»

- الناطق الرسمي باسم 200 مليون عربي «آنذاك».
- طموحي دائماً أن أجلس على الأرض وأبكي مع الناس.
- الأم عندي هي كل شيء – أم المعتز.
- لم أعثر مثلها على امرأة في أي صقع من أصقاع الأرض.
- الشعر ضد السلطة، ولا سلطة تعلو سلطة الجماهير.

- شعر النُخبة انتهى لصالح شعر الناس.
- اللغة الشعرية هي المفصل ولغة النخبة انتهت لصالح الناس.
- أمّمتُ الشعر لكل الناس.
- تجرأت على اللغة حتى دخلت الكلمات الأجنبية في شعري «حتى فساتيني».
- لا توجد كلمة شعرية وكلمة غير شعرية: «أي كلمة يمكن تحويلها إلى شعر».
- العالم قصيدة غير مكتملة ولن تكتمل..
- شاعر الحب، دائماً أبحثُ عن المرأة.
- جسد المرأة قصيدة شعر دائماً أبحث عنه.
- الجنس هو صُداعنا التاريخي.
- الحشد الهائل الذي أتى إلى مكتبة الأسد بدمشق عام 1988 لم يأت ليسمعني بل أتى ليسمع حقيقة نفسه.
- الشعب ليس نصاً مقدساً لا يمكن نقده أو المساس به، ولكنه أرض ثورية يمكن للشاعر أن يزرع في أحشائها ما يريد من بروق ورعود ومتفجرات.
- قل لي كيف تنظر إلى المرأة، أقل لك من أنت.
- الأشياء الكبيرة هي الأشياء الصغيرة.
- العالم قصيدة غير مكتملة ولن تكتمل في أي مستقبل... لن تصير.
- إذا كان قيس بن الملوح مجنون ليلى فنزار قباني مجنون الحضارة.
- «الحضارة هي أهم كلمة عند نزار قباني»
- قد يقال إن الحرية خطر على الشعر، وفتح الأبواب على مصراعيها للداخلين والخارجين سيجعل الشعر مسرحاً للعبث والفوضى، وأرضاً للمغامرين والمتطفلين...
- لا أخاف على الشعر من الحرية ومن تجاوز حدوده التاريخية المرسومة. إن خوفي الحقيقي على الشعر هو الخوف من العبودية فالعبودية امرأة عاقر.[4]

---

4. مقتبس من: «قصتي مع الشعر»

ج ـ نزار يتحدث عن طبيعة الحداثة : مقتطفات[5]

الحداثة ليست أبداً شتيمة كل من سبقونا في كتابة الشعر، ولو بدقيقة واحدة.

وليست أبداً رمي الزبالة في شارع الثقافة وأمام أبواب المبدعين. وليست حفلة اغتياب ونميمة يُسلق فيها من هم أكثر موهبة وأكثر شاعرية.

الحداثة ليست الجهل بالتاريخ، ولكنها العلم به.

وليست بيع ثيابنا وأثاثنا المنزلي في المزاد العلني والبقاء على الحصيرة.

الحداثة ليست عدواناً على البحر الطويل والبحر البسيط والبحر الكامل، والمبتدأ والخبر، وتاء التأنيث، ونون النسوة، ولكنها السكنى معهم في بيتٍ واحد وحيّ واحد.

وحين بدأت بتنفيذ انقلابي الشعري، كنت أعرف على أي أرضٍ أقف، وكنت أقرأ تاريخي جيداً.. ولغتي جيداً.. وهدفي جيداً..

لم أدخل إلى معركة الحداثة بغير خرائط وبغير ذخيرة، وبغير معرفة مسبقة بطبيعة الأرض التي أقاتل فوقها. إذن أنا انطلقت من المعرفة لا من الجهل، ومن الجذور لا من العدم. لم تكن ترعبني البحور الخليلية كما ترعب جماعة الحداثة.

كنت أجيد السباحة، وأعرف كل شيء عن أخلاق البحر وغضب الأمواج ومواعيد العاصفة.

ولم أكن أشعر بعقدة نقص أمام القصيدة العمودية، أو قصيدة التفعيلة، أو قصيدة النثر، أو أي شكلٍ شعري جديد لأنني كنت منفتحاً على كل الآفاق...

---

5 . الحياة، 1993/6/19

د . لمحات من سيرة نزار المبكرة

ولد نزار توفيق القباني يوم الانقلاب الربيعي «21 آذار» من عام 1923، وهو الولد الثاني من أربعة صبيان وبنت. ترعرع في بيت دمشقي في حي يدعى «مئذنة الشحم» في مدينة دمشق مع عصر حركة المقاومة ضد الانتداب الفرنسي. كان بيت أسرته مثل كل بيوت زعماء هذه الحركة من التجار والمهنيين، يمولون الحركة الوطنية ويقودونها من حوانيتهم ومنازلهم، ويمتهنون صناعة الحرية إضافة إلى مهنهم الأصلية، وكان أبوه مثلهم يصنع الثورة، ومنه استقى نزار هذه الازدواجية وانتقلت إلى شخصيته والى شعره.

كان والده كادحاً، حسب رأي نزار، بنوع العمل وبالزمن الذي يستغرقه وبالدخل الذي ينفقه على أسرته وعلى مشاركاته في مقاومة الفرنسيين، وقد استطاع أن يموّل تعليم أولاده أحسن تعليم. لذلك رفض نزار فيما بعد أي اتهام بالبرجوازية وأبقى نفسه بمستوى كل الأسر الدمشقية المكافحة.

تركت الدار الدمشقية التي ولد فيها أثراً كبيراً على نشأة نزار من حيث تشكيلها وألوانها وروائحها وأشجارها وأدراجها الرخامية. اجتذبه هذا الجمال في الدوران حوله عن الخروج إلى الحارة كبقية الصبيان في سنه، وبقي «بيتوتياً»، حسب تعبيره، إلى آخر حياته.

حمل نزار شهادة البكالوريا الأولى من الكلية العلمية الوطنية والثانية من مدرسة التجهيز «الثانوية» في دمشق مع انتهاء السنة التاسعة عشرة من عمره. وخلال هذه السنوات تعلم اللغة الفرنسية وأتقنها إتقاناً كاملاً. وفي الكلية العلمية تتلمذ نزار باللغة العربية على يد الأستاذ خليل مردم بك الذي أثر في ذائقة نزار الشعرية وفي زرع بذرة إبداعه ، وقد ذكره نزار بأجمل العبارات في سيرته الذاتية.

في الثانية عشرة من عمره بدأ يلّون الورق والقماش بكل الوسائل من الماء والفحم والزيت. وفي الرابعة عشرة بدأ يخرج من عباءة الرسم ليدخل عباءة الموسيقا لأنه وجد أن الصوت أرحب وأغنى في التعبير، وجابهته مدرجات السولفيج بمعادلات رياضية روّعته بحساباتها أكثر من صمت الألوان والأقمشة. هذان الفنّان تركا أكبر الأثر بعد ذلك في كتابة الشعر. إذ مارس

الكتابة برسم الكلمات وعزف إيقاعاتها ورنينها.

في الخامسة عشرة عاصر حادثة عشق أخته وفشلها في الارتباط بحبيبها ومن ثم انتحارها، وربما حمل لواء الحب فيما بعد ليعوضها الحب الذي حُرمته، ولينتقم لها من المجتمع الذي رفضه، وأيضاً لتشكل مفاتيح شعره الثلاثة برأيه: الطفولة والثورة والجنون.

في السادسة عشرة قفز أول بيت شعري من فمه وهو يطل من مقدمة السفينة المبحرة من بيروت إلى إيطاليا في رحلة مدرسية «صيف 1939»، وتتالت الأبيات ملونة كالأسماك التي أمامه لتشكل أول قصيدة له.

عاش سنوات الحرب وهو في المرحلة الثانوية ومن ثم الجامعية، وتخرج عام 1945 من جامعة دمشق حاملاً الليسانس في الحقوق، ومتفائلاً أنها ستفتح له أبواب عمله الدبلوماسي المستقبلي. وقبلها بسنة واحدة نشر أول مجموعة شعرية له «قالت لي السمراء» في أيلول/سبتمبر 1944، بثلاثمئة نسخة على حسابه نفدت من السوق في شهر، وكان لقصيدة «نهداك» أثر كبير في إشعال شهرته لدى الجيل المتطلع إلى الحرية، وأوقدت نار النقد ضده لدى الأصوليين وفي مقدمتهم الشيخ علي الطنطاوي «مجلة الرسالة، عدد مارس 1946».

في هذا الوقت كان نزار قد أصبح عضواً في السلك الدبلوماسي السوري «آب/ أغسطس 1945» ملحقاً في السفارة السوريا في القاهرة. وهناك ظهرت مجموعته الشعرية الثانية «طفولة نهد» عام 1948 ، في جو القاهرة «زهرة المدائن» بستان الفكر والفن آنذاك. واستقبله الوسط الأدبي والفني والصحفي من أعرض أبوابه. واشتهرت المجموعة بفضل نشر مقال نقدي للكاتب أحمد المعداوي في مجلة الرسالة التي كان صاحبها صديقه أحمد حسن الزيات الذي نشرها، ولكن بعد تغيير عنوان المجموعة من «طفولة نهد» إلى «طفولة نهر» إرضاءً لقرائه المحافظين. وعلق نزار في وقتها «لقد ذبح اسم كتابي الجميل من الوريد إلى الوريد».

وكان لتلك المقالة الفضل في ظهور اسمه في مصر التي صارت تعتبره واحداً من شعرائها الشباب. لكن حياة الدبلوماسيين لا تستقر، فانتقل نزار إلى العمل في عدة عواصم بعد القاهرة، منها: أنقرة ولندن ومدريد وبكين وبيروت. وظل نزار يعمل في الخارجية السوريا أكثر من 20 عاماً، حتى استقال منها

عام 1966، وأسس داراً للنشر باسمه في بيروت، متفرغاً بذلك لخياره الوحيد، وهو «الشعر»[6].

تزوج نزار بعد سنوات من انتسابه إلى السلك الدبلوماسي السوري، قريبة له هي «زهراء أقبيق»، أم ابنه توفيق وابنته هدباء. وقد جاء زواجه بها في مرحلة بدء إقلاعه نحو عالم الكفاح الصعب بسيف الشعر ونحو آفاق الشهرة. وكانت زهراء «سيدة بيت»، نمت وترعرعت في بيئة اجتماعية محافظة شامية تقليدية، وكانت اتصالات ورسائل «المعجبات» قد بدأت تنهمر على نزار انهمار المطر، من شتى أرجاء الوطن العربي، وكان نزار وسيماً أنيقاً رشيقاً قوياً رقيقاً في آن، ولم تكن لدى زهراء قدرة تعينها على تحمل أن يكون زوجها لها ولغيرها، فكانت تسارع إلى تمزيق رسائل المعجبات به وبشعره، ولم يكن ثمة مفر من تصادم الماضي بالمستقبل الآتي الأكثر تطوراً وجمالاً، فطلقها نزار بالحسنى.

وفي عقد الخمسينات ارتبط نزار بعلاقة مع الأديبة كوليت سهيل خوري التي سجلت فيما بعد علاقة الحب العاصف الذي جمعها مع نزار في روايتها الأولى الشهيرة «أيام معه»، وهي من الروايات النسائية الرائدة في سوريا. وقد اشتراها المنتج السينمائي السوري صبحي فرحات لإنتاجها للسينما ولكن لم ينجز العمل، كان نزار هو بطل الرواية.

التقى نزار «بلقيس» للمرة الأولى، ولم يكن يعلم أن عقله وقلبه سيتعلقان بها إلى هذ الحد المجنون، الذي دفعه رغم الرفض المتواصل، إلى الاستمرار في التقدم لخطبتها حتى نال ما كان يحلم به، التقاها في حفل استقبال بسيط في إحدى السفارات العربية في بيروت، وكان خارجاً لتوه من أزمة وفاة زوجته الأولى«زهراء» الدمشقية، وولده «توفيق» الذي توفي إثر عملية جراحية للقلب في لندن وهو لا يزال في الثانية والعشرين من عمره. وكانت ابنة نزار الوحيدة «هدباء» قد تزوجت وانتقلت لتعيش مع زوجها في إحدى دول الخليج العربي. كان نزار وحيداً تماماً وكانت بلقيس قبيلة من النساء، هيفاء فرعاء يكاد شعرها يلامس الأرض في استرسال لم ترَ عين نزار مثله. هكذا رآها، جذابة وملهمة إلى درجة جعلته يعود الى كتابة الشعر بعد توقف دام ثلاث سنوات،

---

6 . المعلومات السابقة مستقاة من كتاب: قصتي مع الشعر

لم يكن يعرف له نزار مسوّغاً. ويقول: «لكنها بلقيس، أعادت الحبر للأقلام مثلما أعادت الدماء للعروق»[7].

تقدم نزار لخطبة بلقيس أول مرة عام 1962، لكن أسرتها رفضت لما كانت تسمع عن نزار من أنه شاعر النساء والغزل والحب، ولم تأمن على ابنتها أن تعيش مع رجل كل كلامه عن النساء. وظل نزار يلاحقها بإصرار شديد مدة سبع سنين، رفضت خلالها أشخاصاً عديدين لأنها وقعت في حب نزار على الرغم من أنه يكبرها كثيراً، إذ لم تتجاوز 23 عاما، وهو في سن الأربعين.

وعاود الكرة عام 1969، وكانت الموافقة. تزوجا ليعيشا معاً في بيروت، ورزقا بطفلين: زينب وعمر. ونعم نزار معها بحب عميق لا تشوبه شائبة ولا تعكر صفوه الأيام، حتى جاء اليوم المشؤوم الذي فقد فيه نزار كل شيء. فقد قتلت بلقيس عام 1981 في حادث انفجار دمر السفارة العراقية في بيروت حيث كانت تعمل. وصمت نزار ليصيح وقد جن جنونه:

سأقول في التحقيق .. إني قد عرفت القاتلين ..
بلقيس .. يا فرسي الجميلة .. إنني من كل تاريخي خجول
هذي بلاد يقتلون بها الخيول ..
سأقول في التحقيق:
كيف أميرتي اغتصبت ..
وكيف تقاسموا الشعر الذي يجري كأنهار الذهب
سأقول كيف استنزفوا دمها ..
وكيف استملكوا فمها.. فما تركوا به وردا
ولا تركوا به عنبا..
هل موت بلقيس .. هو النصر الوحيد في كل تاريخ العرب؟

وبكى بمرارة زوجةً سقته من حنانها 12 عاماً، نعم فيها بالراحة والسكينة، وصار يجمع ولَديه، زينب وعمر، ويغلق بابه منذ الغروب، بعيدا عن الناس، يسبح بخياله لعله يقابل طيف بلقيس.

---

7. الاقتباس هنا يبدأ من موقع نزار قباني : www.nizarq.com

بعد مقتل بلقيس ترك نزار بيروت، وتنقل في باريس وجنيف حتى استقر به المقام في لندن التي قضى بها الأعوام الخمسة عشر الأخيرة من حياته . ومن لندن كان نزار يكتب أشعاره ويثير المعارك والجدل ..خاصة قصائده السياسة خلال فترة التسعينات مثل : متى يعلنون وفاة العرب؟؟ ، و المهرولون .

وافته المنية في لندن يوم 1998/4/30 عن عمر يناهز 75 عاما قضى منها أكثر من 50 عاماً في الحب و السياسة و الثورة .

كل الأساطير ماتت ....

بموتك ... وانتحرت شهرزاد .

لماذا هو الشاعر الوحيد الذي عندما تقرأ كلماته أي امرأة تشعر بأنها هي التي تتكلم؟

ولماذا يحمل نزار لقب «نصير المرأة » ؟

لماذا عاش ومات يدافع عن النساء؟

هو نفسه لا يدري، ويتساءل: «هل كان موت أختي في سبيل الحب، أهم العوامل النفسية التي جعلتني أتجه إلى الكتابة عنها وعن مشاعرها وإحساسها؟ هل كان ذلك تعويضا لما حُرمت منه أختي؟

وهنا يتساءل سائل: ولكن أين مكانة المرأة التي بدأ نزار حياته واضح الاهتمام بها وسبّب له ذلك ضجيجاً وانتقادات لاذعة في المجتمع المحافظ؟ وكالعادة كانت أجوبة نزار واضحة وصريحة، كما يتضح من العبارات التالية ومثيلاتها:

«وإنني لأعترف هنا، أن النساء اللواتي أحدثن كسراً في زجاج حياتي، لا يتجاوز عددهنَّ أصابع اليد .. أما الباقيات فلم يتركن سوى خدوش بسيطة على سطح جلدي».

«المرأة لا تتوهم أبداً. إن رؤيتها أوضح وبصيرتها أعمق.. وهي بحاسَّتها السادسة تستطيع أن تكشف أوراق الرجل الذي يطارحها الغرام، وتعرف على أيّ أرض تضع قدميها..»

«بالرغم من سمعتي كشاعر حبٍ، فإنني نادراً ما وقعت في الحب.. خمس مرات ربما .. في مدى ثلاثين عاماً.. قد يبدو الرقم متواضعاً.. ولكنه حقيقي وصادق»

«مطالبي من المرأة شخصية جداً، وصغيرة جداً. أولها أن تكون من أحبها تشبهني، وثانيها أن تكون أمي.. وثالثها أن يكون فني جزءاً من عمرها كما هو جزء من عمري.»

حدثت منذ نكبة 1967 انعطافة جذرية في شعر نزار، وتحول من شاعر المشاعر النسائية والجسد الأنثوي إلى شاعر ثوري، فنظم في نكبة يونيو/حزيران قصيدة «هوامش على دفتر النكسة»، لكن الشاعر الكبير صالح جودت، شنَّ عليه هجوماً بالغ العنف لم يقتصر على الوقوف ضد القصيدة، بل طالب بمنع بث أعماله في مصر. ويقال إن سبب تلك الحملة هو نجاح نزار المتميز في مصر[8].

كانت لنزار قباني آراء سياسية جريئة وعميقة. فرأيه أن مشكلتنا في العالم العربي هي التخلف وسيادة التفكير الضيق ودبلوماسية الوساطة والتوكيلات، وعن سلوكنا السياسي العربي كان نزار يؤكد أن: «سلوكنا السياسي هو مجموعة من السلبيات وسلسلة طويلة من الجبرية والقدرية، محاولةً لدفع المسؤولية عن ظهورنا، وربطها بعوامل وقوى خارجية لا قدرة لنا على دفعها أو ردها».

وهكذا طاف نزار بأشرعة الشعر بحار الحب وعوالم الحرية، وخاض بقلمه غمار السياسة.

8 . سوف يأتي تفصيل منع القصيدة في القسم الثالث .

القسم الأول

2 - ثلاث محطات

أ . نزار قباني وحكاية صداقة حميمة

كل من يطّلع على الرسائل القليلة المتبادلة بيني وبين صديقي الغالي الشاعر نزار قباني مالئ الدنيا وشاغل أهل الثقافة وغير أهل الثقافة على امتداد النصف الثاني من القرن العشرين بل قبل ذلك بعقدين من الزمن، لابد أن يظن أنني ونزار كنا أبناء حارة واحدة أو زمالة مشتركة أو جيل واحد، أو مزاج متقارب. ولكن الحقيقة تفيد أن لقاءنا الشخصي كان متأخراً بعض الشيء ومتقطعاً، بل إن متابعتي لإبداعاته كانت أيضاً متقطعة ومتأخرة، ولكنْ صدق الحديث المأثور : «الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها أتلف، وما تناكر منها اختلف».

كان أول لقاء لي مع نزار في قاعة بقسم اللغة الإنكليزية بجامعة دمشق وفي رحاب مبناها القديم «كلية الحقوق سابقاً» ، وكنت قد تخرجت في قسم اللغة العربية عام 1954، وعُينت مدرساً ثانوياً، وكان مسموحاً للمتخرج أن ينتسب إلى فرع آخر في الجامعة، فاغتنمت الفرصة وانتسبت إلى قسم اللغة الإنكليزية في أواخر الخمسينات ... وفوجئت بأن الشاعر المعروف نزار قباني يتابع محاضرات في القسم نفسه بصفة زائر. وكان قد أثار ضجة بل صاعقة آنذاك في المجتمع العربي المحافظ بسبب قصيدته «خبز وحشيش وقمر» التي نشرها في لندن عام 1954، وناقشها البرلمان السوري وارتفعت أصوات فئة كثيرة من المحافظين تنادي بمحاكمته وعزله من السلك الدبلوماسي. وهكذا كان محطّ اهتمام الأساتذة والطلبة بين مستنكر ومؤيد.

وكانت وسامته فائقة وجذابة، وفي أوقات الاستراحة بين المحاضرات كانت تتجمع حوله طالبات القسم، ومعظمهن من الطبقة الميسورة، وكان حسن حظي بعد مبادرة تحرش من جانبي أن أتلقى استجابة فورية من نزار لبدء مشروع صداقة، ربما لأنّني كنت وإيّاه من القلائل الذين يحاورون الأساتذة ويناقشونهم بصراحة ودون اهتمام بنتائج الامتحانات، لأننا لم نكن نبغي نجاحاً ولا ترفيعاً. وبالتدريج حدث تقارب بيننا أشبه بالمودّة، وكنا نجلس معاً في الصف الأول من القاعة لنسمع المحاضرين ونناقشهم، وسط مجموعة

من الطلبة همها الأول هو التوصل إلى سبل النجاح في الامتحانات، وكان عدد الفتيات موازياً تقريباً لعدد الطلاب - ومعظمهن من بيئة مترفة - وذلك خلافاً لقسم اللغة العربية الذي كان مكتظاً بالذكور، وكان أساتذته علماء أجلاء يلقون محاضراتهم الجادة والكثيفة، وقلّ ما يتركون فسحة للنقاش.

ولسوء حظي لم تطل إقامة نزار في دمشق، وسرعان ما تابع عمله الدبلوماسي في عواصم مثل القاهرة ولندن ومدريد وغيرها. وكانت صلتي به متقطعة، إلا أن سمعته أخذت تزداد شيوعاً داخل الوطن العربي ولاسيما بعد أن أصبح يسهم في المناخ السياسي والقومي، وأخذ ينتقل بالتدريج من عالم المرأة إلى آفاق الوطن والمجتمع، وذلك على الوتيرة نفسها من ناحية الصراحة والمجابهة ولاسيما بعد النكبات التي أصابت الوطن العربي في الستينات والسبعينات من القرن العشرين. وقد أدى به الاندماج في القضايا الوطنية والاجتماعية إلى الاستقالة من العمل الدبلوماسي في ربيع 1966، وأسس داراً في بيروت لنشر إنتاجه وباسمه، متفرغاً بذلك لقَدَره الوحيد : **الشعر**.

كان نزار رجلاً فريداً من نوعه وكان يجابه بمنتهى الجسارة الأشياء والتواريخ والأحداث والرؤساء والمعتقدات والنساء «مع التركيز على النهود دائماً»، وكان أيضاً يواجه نفسه واعتقاداته وقناعاته بلا غطاء ولا التفاف وبشجاعة قل نظيرها في حياتنا العربية، ولاسيما خلال النصف الثاني من القرن العشرين. وكان شاعر المواجهة وشاعر الصدق وشاعر «ضوء الشمس» وعدوّ المراوغة والكبت والباطنية والتهذيب المصطنع، وعلى الرغم من أنه قضى حوالي النصف الأول من حياته العملية في السلك الدبلوماسي وتنقل من بلد إلى بلد ومن ثقافة إلى ثقافة، إلا أنه بدأ يدرك جوهر ثقافته الذاتية في وقت مبكر من حياته. وخلافاً لما يحدث غالباً للعاملين في السلك الدبلوماسي كان دأبه وديدنه الصراحة المطلقة والمواجهة والجسارة الجريئة. وكان ضوء الشمس الناصع لا يغيب عن أقواله وعن أفعاله، وذلك أيضاً خلافاً لمناخ الإمبرطورية البريطانية التي لم تكن الشمس تغيب عنها في فترة نضجه، إذ إنه عاش في عاصمتها لندن ردحاً من الزمن مطلقاً العنان لصراحته وغير عابئ بجرائر الصدق والمواجهة على المستويين الشخصي والدبلوماسي بل والغرامي.

وهنا تضيء عظمة نزار الإنسانية في مختلف مواقفه، موظفاً ودبلوماسياً وشاعراً، إلى جانب جرأته في مواجهة نفسه، ثم رؤسائه في العمل وحكام بلده ووطنه العربي، ثم ثورته النارية في مواجهة الجبن والمراوغة في فترة كان الخنوع للحكام واقعاً وقدراً، وكذلك مواجهة تزمّتية المجتمعات العربية وغرقها في الظلمات والمعتقدات الراسخة والتابوهات المخيمة. وكان التكفير أو التخوين أسهل عملية في مجتمعات العرب والمسلمين آنذاك، كما كان «التحريم» مخيماً على الأفكار والمفردات والأذواق والإبداعات الأدبية والفنية، ودع عنك الممارسات السياسية التي كانت جرائرها لا تغتفر، وذلك مع استثناءات محدودة.

ومن أطرف ما أتذكره من جولات النقاش في قسم اللغة الإنكليزية أنه كان هناك أستاذ أمريكي مفعم بسموم الدعاوة الصهيونية، وكنّا، نزار وأنا، نجادله وقت الدروس وحتى خارجها بلا هوادة. وكان معظم الطلاب قلما يشاركون في النقاش حرصاً على نتائج الامتحان. وصدف أن أتت إلى القسم محاضِرة إنكليزية من أصل فلسطيني «ربما كانت قريبة عنبرة سلام الخالدي مترجمة الإلياذة المعروفة». وكانت وسيمة وذكية ومعتّدة بنفسها. وبدأ نزار يحاورها، وأظنه كان لا يعبأ كثيراً بالفتيات الوسيمات من حوله، ووجد في الأستاذة نظيراً له ونداً، إلا أنها كانت حريصة على إيقافه عند حده من خلال الردّ الحصيف على ملاحظاته. وإن أنسَ لا أنسَ حادثة طريفة من هذا القبيل، إذ كانت قاعة التدريس صغيرة ومكتظة، ومرةً أتت طالبة جميلة جداً ونبيهة، أتت متأخرة عن وقت بدء المحاضرة، وكان من عادتنا أن نجلس في الصف الأول جنباً إلى جنب، وحين أطلت تلك الفتاة على القاعة وحارت أين تجلس وقف نزار ودعاها بمنتهى الشهامة أن تجلس مكانه، ولكن بحركة شبه مسرحية، فتصدّت له الأستاذة المحاضرة بحركة شبه مسرحية أيضاً وقالت له بإنكليزية فخمة:

Mr Kabbani you remind me of the gallantry of the middle ages[9].

وفي هذه المرة بالذات لم يُحر جواباً. وبعد المحاضرة ضحكنا كثيراً في

---

9. أي أنت تذكرني بشهامة العصور الوسطى. وبصراحة قد يستنكر بعض محبيه مثل هذه التفصيلات، ولكن مما يشجع المرء على إثباتها أن فن السيرة الحديث ينبهنا إلى أن التفصيلات البسيطة تسهم في أنسنة السرد وتأثيره، وتكسبه نكهة خاصة: From the earth: earthy

محاولة تفسير هذه الطرفة.

وكان نزار نبيهاً ذا ذهن قادح وكنت أحب مرافقته، ولكن تجمع الزميلات من حوله وقت الاستراحة، لم يكن يسمح لي بإكمال جملة مفيدة معه. ولم يطل به المقام، وعاد إلى تجواله الأسطوري العالمي. وبالتدريج أخذت تنقطع اتصالاتنا، وأخذت أكتفي بمصاحبة قصائده المتدفقة إلى أن أتيحت لي الفرصة بعد سنين طويلة للقائه في قطر، وكنت قد التحقت بجامعتها أستاذاً للأدب المقارن، وأتيح لي أن أسهم بترتيبات دعوته إلى الدوحة في منتصف الثمانينات على الرغم من علاقته المتوترة بمنطقة الخليج العربي آنذاك لأسباب تتعلق بقصائد معينة له.

وكان اللقاء الثاني شبه لقاء، عام 1988 حين دعي إلى دمشق ولقي احتفاء رسمياً واحتفالاً شعبياً واسع النطاق. عاد نزار إلى دمشق المحبوبة الأولى والأخيرة، وتسابق جمهورها لسماع الفتى الغائب/ العائد، واكتظت القاعة الكبرى في مكتبة الأسد، وغص فناء الحديقة بالجالسين والواقفين من شيب وشبان. وتسابق الصحفيون ومعدّو البرامج الإذاعية والتلفازية لتزويد جعبتهم بالنبأ الكبير.

وكان في مقدمتهم الأديب المتوهج **رياض نعسان آغا** «وزير الثقافة فيما بعد» الذي استطاع أن يجمع آراء عدد كبير من النقاد والأدباء السوريين من متابعي إبداع نزار وأن يستطلع آراء كل منهم وردود نزار عليها.

وقد انتهت زيارة نزار بصمت غير مفهوم.

وفي هذه الفترة لم تتح لي أية فرصة لمحاورة مباشرة معه سوى سماع ردوده على مداخلاتي الثلاث التي سجلها رياض في مكتبة بيتي في المزة مباشرة بعد سماعي لشعر نزار في مكتبة الأسد، ومن ثم قسمها إلى ثلاثة أجزاء حسب النقاط التي أبرزتُها في شعره، وطعم بها محاورته مع نزار، وسيأتي عرض موثق من هذه المداخلات وردود نزار عليها فيما بعد.

وكان اللقاء الثالث في قطر.

ب. نزار قباني في الدوحة

كانت زيارة نزار الأولى لقطر عام 1985 ، وتبعتها زيارة ثانية بعد ذلك بعشر سنوات، وأعلن في زيارته الثانية أنه سمّى الزيارة الأولى بأنها زيارة ذكورية وأعلن فشلها بسبب اقتصار الحضور على الذكور. وأشاد بالزيارة الثانية «1995» من ناحية حضور الجنسين وبما لقيه من تجاوب لدى الجمهور.

وبما أن الشيء بالشيء يذكر، أسمح لنفسي أن أشير إلى واقعة طريفة حدثت لي في الدوحة قبل زيارة نزار بعقد من السنين «1975»، إذ دعيت لإلقاء محاضرة في الموسم الثقافي القطري الذي أسهم فيه نخبة من المفكرين العرب آنذاك. وكان موضوعي بعنوان: «ملامح الحداثة في الأدب العالمي». واصطحبت زوجتي أم الأمين معي، وذهبنا معاً بصحبة الأستاذ المضيف إلى قاعة المحاضرات، واستغرقت بتبادل السلام مع كثير من الحاضرين، وبعد أن اعتليت المنبر رأيت أمامي جمهوراً ذكورياً خالياً من أية امرأة، وعجبت أين ذهبت الزوجة، وضربت أخماساً بأسداس، وبعد انتهاء المحاضرة سارعت بالسؤال عن رفيقة العمر، وكان الجواب أنها تابعت المحاضرة في زاوية آخر القاعة مخصصة للنساء، وكان عددهن ضئيلاً جداً... وحمدت الله على السلامة.[10]

وكانت المفاجأة الثانية أن المحاضرة لقيت اعتراضات قوية من الجمهور لما ورد فيها من إشادة بالنزعة الإنسانية لدى شعراء أوروبيين مثل بول كلوديل و ت. س. إليوت وآخرين، بل كان هناك اعتراض مبدئي على تمجيد هؤلاء بل على الشعر الغربي نفسه، مع تذكير بما ورد في القرآن الكريم:« والشعراء يتبعهم الغاوون ...» [11].

أما مناخ الزيارة الثانية لنزار بعد ذلك بعشر سنوات «الأسبوع الأول من

---

10. معذرة لهذا الاستطراد الذي أُريد له أن يكون تمهيداً لما حدث مع نزار بعد ذلك بعقد من الزمن.

11. استقيت هذه الاستذكارات من مراجعة صحافة تلك الفترة وكذلك من التشاور مع شخصيات ثقافية قطرية ذات صلة. ولم أكن مقيماً في الدوحة، ولذلك فضلت عدم التعرض لها بالتفصيل. وأذكر أن نزاراً أشار في أحاديثه إلى تغير المناخ الاجتماعي في قطر خلال عقد من الزمن.

شهر مايو/ أيار 1995» فقد كان مختلفاً تماماً، وكان نزار قد قوبل بالترحيب والاهتمام وذاعت شهرته في مناطق الخليج العربي، وفي الكويت بوجه خاص، وخلال تلك السنوات كانت منطقة الخليج قد خاضت تطورات فائقة على مختلف المستويات الاقتصادية والاجتماعية والحضارية. وكان لي شرف المشاركة في دعوة نزار مع الصديق يوسف درويش بتكليف من نادي الجسرة الثقافي. ومن حسن الحظ أن نزار كان إيجابياً في تلبية الدعوة، مع شرطه المعهود في زياراته المختلفة الذي لم يحد عنه أبداً ومفاده أنه يلقي ما يشاء من أشعاره دون أية رقابة أو تغيير. وفي هذه الفترة كان المجتمع القطري قد قطع شوطاً في مجال تحرير المرأة من القيود التقليدية، كما أخذت المرأة بالتدريج تسهم في النشاط التعليمي والثقافي، وإلى حد ما في النشاط الإداري والحكومي، ولكن في المحاضرات ظلت مفصولة نسبياً بمنطقة مخصصة في شرفة مطلة على القاعة مع استثناءات من الوافدات ومن بعض المثقفات القطريات. وفي تلك الأمسية كان الحضور الأنثوي ملحوظاً.

وأذكر أنه بدأ الإلقاء بعد كلمات المجاملة بقصيدة غزلية جريئة نسبياً من كتابه الجديد آنذاك عنوانه « **خمسون عاماً في مديح النساء** » ، وأضاف قصائد أخرى على شاكلة الأولى. وكلها قصائد تمجد المرأة وتتناول الرجال بهجاء وتوبيخ مع إشادة بالمرأة الأم والأخت والحبيبة والزوجة الخ .. وكان تجاوب الجمهور جيداً «لدى الشبيبة بوجه خاص» وكيف لا، ونزار أمير الشعر وملك الإلقاء؟.

وانتهى الاحتفال بسلاسة وسلامة. ولكن حين بدأنا نخرج من القاعة إلى الصالة الملاصقة تصدّى جمهور الشباب من ذكور وإناث لشكر نزار وأخذ توقيعه على الدفاتر الخاصة «أتوغراف»... وفجأة اقتربت منه شابة ملفعة بالسواد حتى وجهها وكفيها، وطلبت منه توقيع الأتوغراف. وكنت إلى جانبه مع مضيفه يوسف درويش، وكادت تتوقف أنفاسنا من خشية رفض نزار، وتأزم الموقف حين قال لها نزار: ما هذا ! أنا لا أوقع لشبح.. وكاد قلبي يتوقف عن النبض خشية تأزم الموقف، إلا أن الفتاة كانت حصيفة وسارعت بكشف حجابها قائلة: «أنا لست شبحاً». وعند ذاك استجاب نزار وسارع إلى التوقيع مسروراً ... وتنفسنا الصعداء خوفاً من غضبها وزميلاتها ونحن نقدر كياسة

تلك الفتاة وحسن تصرفها.

ثم أمضينا سهرة ذكورية ممتعة مع نزار، وكان كالعادة صريحاً وأنيقاً في كلامه.

وفي عصر اليوم التالي بعد أنهى زياراته الرسمية، اصطحبته إلى منزلي في زيارة عائلية حيث استمع إلى محاولات ابنتي اليافعة «رافنة» في مجال نظم الشعر، وأصغى لها وشجعها ثم أهداها نسخة مطبوعة بخطه الجميل من ديوانه «**طفولة نهد**» مع كلمات لطيفة ومشجعة لها، وأهداني نسخة من ديوان «**أنا رجل واحد وأنت قبيلة من النساء**» وثانية من «**خمسون عاماً في مديح النساء**». وأظن أن مؤلفاته لم تكن متوفرة في مكتبات الدوحة آنذاك فكانت تلك هدية مضاعفة القيمة.

وحين غادرنا نزار كان مسروراً بهذه الزيارة وفور وصوله إلى مقره في لندن اتصل هاتفياً للتعبير عن شكره واستمتاعه بالزيارة. وهكذا كان صريحاً وحادّاً في مواقفه العامة ورقيقاً وافر المودة في علاقاته الإنسانية.

ولعله من ضرورات اكتمال الصورة أن أشير إلى أن الصحافة اليومية أفردت له في اليوم التالي لزيارته حيزاً كبيراً ونشرت الصفحات الأدبية فيها تعليقات ايجابية بارزة لم تكن غير منتظرة.

وسوف نعرض أنموذجين مختلفين بقلمي كاتبتين قطريتين مرموقتين، ومن ثم مقابلة صحفية مفصلة تعبر عن تقدير كبير لإبداع نزار ومواقفه الجريئة.

نزار والمرأة

د. زكية مال الله

كانت المفاجأة الجميلة للشاعر الكبير نزار قباني في أمسيته الأخيرة بشيراتون الدوحة 1995/5/6 هي حضور المرأة وأنها تملأ المكان وتذيب الجليد وتبتدع اللغة وتسكن القصيدة، وهذا هو الفرق بين أمسيته الأولى في الدوحة قبل عشر سنوات التي سماها الأمسية الذكورية وأعلن فشلها بسبب اقتصارها على جنس الذكور فقط وأمسيته الثانية التي تميزت بحضور الجنسين، ولذلك فهو يدين للنساء بالامتنان والشكر لحضورهن وتحرّرِ نون النسوة وانتصار تاءات التأنيث. كما كانت قصائده العاطفية الخمسِ التي ألقاها في الأمسية تتويجاً وتمجيداً لهذا الولاء القديم للمرأة واعترافاً شامخاً بانتصار الكلمة الأنثى التي بدونها لا يمكن للعالم العربي أن يدخل بوابة القرن الواحد والعشرين، كما يقول. ونزار شاعر الحب بلا منازع، كما يطلقون عليه، والمرأة ضلع من أضلاع الحب، بل إنها الصانعة للحب والملهمة له النامية في حدائقه والمتفتحة بين زهوره. وقد ترعرع نزار في هذه الرياض واشتم عبيرها وامتلأت رئتاه بنسائمها، وطفحت مخيلته صوراً وتعابير من وحيها. سئل مرة في إحدى الحوارات الصحفية ماذا أعطتك المرأة وماذا أخذت منك؟ قال: «المرأة أعطتني الشعر والقلق والجنون، وأخذت ضلعاً من أضلاع صدري وصنعت منه مشطاً من العاج تتمشط به. نحن معجونون بالمرأة ومختلطون بها عضوياً وكيميائياً، ومهما ادعينا الذكورة فإننا مرتبطون بها بواسطة حبل المشيمة منذ ميلادنا وحتى موتنا. والرجل الذي يقول إنه قطع حبل مشيمته وانفصل نهائياً عن المرأة يتحول إلى شجرة يابسة بلا جذور ولا أوراق ولا رائحة.» وقال عنها : «المرأة مجموعة من الأسئلة والفوازير يقضي الرجل طول حياته وهو يحاول حلها، ومتى توصل إلى الحل سقط ميتاً، بذلك ليس من مصلحة الرجل أن يصل إلى اليقين ويكتشف خريطة المغارة المسحورة، وليس من مصلحة المرأة أن تسلمه مفاتيح المغارة، فحين تفتح المغارة أبوابها لألوف السائحين سوف تتحول إلى مهرجان سياحي مكشوف كمهرجان الضوء والصوت». وقال في تعريفه لها: «المرأة علبة الألوان التي

لولاها لكان العالم صورة بالأبيض والأسود.» وقد تغلغل نزار في جسد المرأة وقلبها وعقلها وروحها حتى وصل إلى أدق أطرافها وجرى في عروقها ودورتها الدموية، وكانت قصائده ودواوينه الخطوات التي كان يتلمس بها الطريق إلى ذلك الوصول اللا متناهي حتى تنطفئ في ذاكرته الشمعة الأخيرة لآخر امرأة يعرفها في حياته.

وقد تعددت قصائده في النساء وتنوعت، وكان عنوان ديوانه الأخير الصادر في 1994 هو :« خمسون عاماً في مديح النساء»، الذي احتوى على عشرين قصيدة اختص بعضها في مديح النساء وبعضها في هجاء الرجال، إلى جانب قصائده الأخرى مثلما في أغلب دواوينه.

ولعل القارئ والمستطلع بعمق في ما كتبه ويكتبه نزار في المرأة يكتشف مدى غلبة بعض الكلمات والمصطلحات الجنسية وتكرارها في الآذان المنصتة حتى إننا نتساءل لماذا من المباح للشعراء البوح بهذه المصطلحات والتغني بها علناً باسم الشعر، وهل تجوز هذه الإباحة الغزلية!.

أما بالنسبة للشاعر نزار قباني فإنه يعرّف مصطلح شعر الغزل كما ورد في أحد أقواله بأنه : **«الشعر الذي يتناول مفاتن المرأة الخارجية ويهتم بتصويرها وعرضها كما تفعل الكاميرا».** كما يعرّف مصطلح شعر الحب بأنه الشعر الذي يتناول المرأة من كل زواياها وأبعادها الروحية والنفسية، ويحاول أن يكتشف عطر الأنوثة الداخلي، أي إنه يسلط الضوء على ما في أعماق الوردة لا على أوراقها ولونها فقط. وكذلك مفهوم الجنس لديه كما يقول يعني الطهارة والنقاء والسموّ ومرتبط بعقلية ومستوى وحضارة الإنسان الذي يمارسه، وكلما كان الذي يمارسه راقياً تحول الجنس إلى فعل راق.

ولذلك فإنه يتناول المرأة في قصائده ويحاول الارتقاء بها والدفاع عنها واحتواءها بأروع المعاني وأرقها من واقع هذه المفاهيم خاصة مفهوم الحب الذي يتبناه ويعايشه وينصّب نفسه أميراً في مملكته. فالحب في تعريفه هو جرثومة صغيرة تدخل دورتنا الدموية فتجعلنا أكثر نضارة وعافية. ومن ثمّ امتزجت المرأة لديه بالحب والجنس الراقي وظهر ذلك واضحاً في مصطلحات قصائده ومتطلعاً نحو اكتشافات العوالم النسائية الكامنة في خرائط الكون وتحديد أبعادها ومساراتها والفوز بغنائمها من سحر وجاذبية ووداعة ونعومة.

«الراية القطرية 8 / 5 1995 »

المرأة في شعر نزار

مريم الخاطر

في الحقيقة كنت أود الخوض في هذا الحديث مبكراً، ولكنني آثرت الانتظار وأنا على عجب من الصورة التي وصل إليها الأدب على مستوى الندوات الشعرية، كما دار في ندوة نزار قباني فكنت أتوقع أن تمنع تلك القصائد الفاحشة التي تضج بها دواوينه أو تلك التي ترسم بريشة الشاعر وصفاً حياً للمرأة يخلو من الحياء، كما تمنع الصور الخارجة عن الحياء في هذا المجتمع فكلاهما تصوير لمفاتن المرأة سواء كان التصوير بريشة الفنان أو بريشة الشاعر لما لهما من أثر كبير في إثارة المشاعر والمساهمة في إشاعة نظرة مختلفة للمرأة.

صحيح أننا مع نزار في جدال عنيف بين القيم الجمالية والقيم الأخلاقية والدينية تماماً كما قام الجدل في النقد قديمه وحديثه بين دعاة الفن للفن ودعاة الفن للحياة.

فالالتزاميون يرون أن وظيفة الأدب تكمن في أنه وسيلة لا غاية، وسيلة لتحقيق حياة أفضل، وهكذا كان أفلاطون، فقد قدر خطورة الشعر وتأثيره لأنه فن يستثير العاطفة الإنسانية مما يدفع الشباب إلى اتجاهات غير مرغوبة، ولذلك نفى الشعراء من مدينته الفاضلة.

وعلى أننا لا نريد كما أراد أفلاطون نفي الشعراء أو قصائدهم وإنما نريد النظر لا فيما يكتبه الشاعر، فهو حر فيما يكتب لأن الجمهور ينتقي ما يقرأ، ولكننا نريد النظر فيما يلقيه الشاعر في الندوات على جميع المستويات الثقافية والعمرية، فهذا هو السلاح الموجه للجميع، ربما يقول البعض وما شأن الشعر الفاحش ونظرة الدين والمجتمع إذا كان على مستوى فني عال من الأداء، نقول: بأننا لا ننكر جودة الشعر الفنية لدى نزار قباني، وبراعة تصويره ووصفه ومقدرته الفنية، ولكننا ننظر إلى بعض قصائده الغزلية الحسية التي بعدت عن الرومنسية والتي وصفت المرأة وصفاً يخدش الحياء، وما الأمر في ذلك؟ هذا سؤال البعض.

فنعود ونقول: أليس الشعر أدباً رفيعاً يؤثر في المجتمع وأفكار أفراده، ألم يمهد الأدب للتغيرات السياسية في فرنسا قبيل الثورة الفرنسية وروسيا قبيل الثورة البلشفية ومصر إبان الاستعمار الانجليزي.

أليس الشعر إذا كان في الدواوين متروكاً لحرية القارئ في الأخذ والترك؟ أما على مستوى الندوة الشعرية والتي يعرضها التلفزيون فيكون الجمهور مجبراً على الاستماع لجميع ما تجود به قريحة الشاعر جيدة ورديئة.

إن تلك القضية بين الالتزام وبين الحرية الشعرية قضية قديمة. وعلى الرغم من اختلاف النقاد إلا أننا في مجتمع ملتزم محافظ يتمسك بتعاليم دينية وقيم مجتمعه ومبادئه، ويرفض تلك الشطحات الخيالية التي تجسد المرأة وتعريها. وقد يناقض البعض نفسه عندما يقول: لماذا نرفض هذا النوع من الشعر إذا كان يمثل أدباً رفيعاً وتصويراً فذاً بارعاً؟ ونقول: هل يرضى أحد أفراد المجتمع بصورة فنية رسمها فنان مبدع سخّر لها كل طاقاته الفنية وألوانه ولكنها ترسم العري والتفسخ، أو هل يقبل أحد أن يكون في بيته فيلم رائع التصوير والإخراج السينمائي ولكنه معرض للفاحشة والتعري؟. بالتأكيد ستكون إجابتنا لا، فإننا إن لم نخشَ على أنفسنا فإننا بالتأكيد سنخاف على الأجيال من أبنائنا المراهقين، وهنا كما أرى تسقط دعوة دعاة الفن للفن، لأن الفن لابد من أن يخدم الحياة ورسالة الفن ينبغي أن تخضع للعقيدة وتلتزم بالأخلاق سواء كانت رؤية الفنان خاصة أم عامة أم موضوعية لأن الإبداع الأدبي وسيلة لغاية أعظم.

لقد استحسن الرسول صلى الله عليه وسلم المطالع الغزلية في مقدمة القصائد المدحيّة، وكان للنقاد القدامى موقف من الفن فقد استحسنوا ذكر الخمر في الشعر، ولكن الفحش الذي يتناول دقائق الحياة بين الرجل والمرأة، والنيل من جسد المرأة بتصوير تقاسيمها منهي عنه شرعاً، وهذا اللون من الشعر مع الهجاء المقنع هو الذي عنى، والله أعلم بقوله تعالى:

«والشعراء يتبعهم الغاوون، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون، وأنهم يقولون مالا يفعلون، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً، وانتصروا من بعد ما ظلموا».صدق الله العظيم

فنزار قباني شاعر مبدع وذو مقدرة فنية لا يختلف عليها اثنان، ولكن ماذا

لو انتقى من دواوينه الشعرية الفائقة الجودة الفنية ما يتناسب وغاية الفن وغاية المجتمع وقيمه ومبادئه؟

ماذا لو ترك جمهوره من النساء يستمعن إلى شعره دون أن تخجل من نفسها، إن ترويض الشعر في مثل هذا المجتمع المتدين مرفوض....

«الراية القطرية 1995/5/9»

انطباعات نزار خلال زيارة الدوحة

فيما يلي نص مقابلة أُجريت مع نزار في 1995/5/8 حول آرائه المتعلقة بالنقاد وأهل الفن، أجرى المقابلة السيد محمد طه في جريدة العرب القطرية.

س 1: ما ردك على الذين يقولون إن شعر نزار القباني لا ينال إلا إعجاب المراهقين والمراهقات؟

نزار:

بالأمس كنت أتحدث مع الناقد حسام الخطيب وقلت له إن النقاد في الماضي كانوا يكتبون ويقولون: نزار شاعر مرحلة وشعره يتوجه إلى المراهقين من الجنسين حتى إذا انتهى هؤلاء من مرحلة مراهقتهم انصرفوا عن شعر نزار... وقد ثبت أن هذا الرأي خاطئ وغير صحيح، لأنني مررت بتجربتين قويتين واحدة منذ عامين، والأخرى قبل أشهر قليلة عندما أقمت أمسية شعرية في مدينة القيروان وتجمع فيها 12 ألف مستمع من جميع الأعمار إذ حضرت البنت وأمها وجدتها، إذن أين هم الذين هربوا من شعري... إن قصائدي ليست منقوشة على الهواء، قصائدي منقوشة في لحم الناس وفي جهازهم العصبي وفي قلوبهم. إذن كيف يمكن أن يهربوا من شعري! الذي يَحزَنُ يقرأ شعري، والذي يَفرح أو يُحب أو يتمنى، يأتي إلى شعري. لذلك فأنا لا أؤمن بالأفكار النظرية التي طرحها النقاد حول شعري لأنهم لا يعرفون كيف يُقرأ النص الشعري جيداً، ولا يعرفون ما هو الشعر جيداً: الشعر هو الجسر الممدود إلى الآخرين.

س 2 : الملحنون العرب استفادوا من شعرك لإثراء الأغنية العربية بالأغاني الأصيلة والجميلة، فمن من الملحنين العرب استطاع أن يجسّد قصائدك عبر ألحانه ويترجم أحاسيسك كما أردتها؟.

نزار:

اثنان من الملحنين العرب هما اللذان استطاعا أن يترجما أحاسيسي الشعرية في أغانيهم وأتصور أنهما أهم اثنين، الأول هو **محمد عبد الوهاب** الذي عاصر وتربّى مع أمير الشعراء أحمد شوقي.. وقد اكتشف عبد الوهاب أنني أكتب بطريقة مختلفة وغير مألوفة مع ما كان سائداً من الشعر. وذات يوم أخذ عبد الوهاب قصيدة «**ماذا أقول له**» التي غنتها المطربة نجاة الصغيرة، وفي القصيدة بيت يقول:

على المقاعد بعضٌ من سجائره
وفي الزوايا بقايا من بقاياهُ

وعندما لحّن هذا البيت أسمعه لأحد المثقفين الرجعيين فاندهش هذا المثقف، وقال لعبد الوهاب: هل من المعقول أن تلحّن للسجائر والمقاعد بعد أن كنت تلحن قصائد أمير الشعراء «ريم على القاع بين البان والعلمِ».

تصوّر هذا المثقف الرجعي أن عبد الوهاب بدأ يتدهور فنّياً.. ولكن عبد الوهاب الفنان ردّ على هذا المثقف وقال له: «إنني لحنت هذه القصيدة بالذات لأن فيها كلمة «**سجائر**» لأن السيجارة تعني الكثير عند المدخن.. ولا يوجد عاشقان يذهبان إلى كازينو إلا وكانت السجائر ثالثهما.. فنزار صوّر العشق في عصره وجسّد صور ومفردات هذا العصر بشكل مكثف.. ولا يمكن أن يرسم نزار صوراً للعصر الجاهلي مثلاً، ولا أن يستخدم مفردات غير مفردات عصره.. إنه يكتب للحب المعاصر.»

أما الملحن الثاني فهو الملحن القدير **محمد الموجي** خير من لحّن القصيدة. وبالمناسبة ليس كل ملحّن يستطيع أن يلحّن القصيدة، فالملحن بليغ حمدي رحمه الله لم يكن يعرف كيف يلحّن القصيدة.. أيضاً لا يمكن أن نستبعد من قمم الملحنين الملحن الكبير المرحوم رياضٍ السنباطي، ولكن لم أتعامل معه، وعبد الوهاب والموجي أديّا دوراً هاماً في تلحين قصائدي، وإنني اعتبر تلحين قصيدة «قارئة الفنجان» وقصيدة «رسالة من تحت الماء» أهم قصيدتين معاصرتين تمّ تلحينهما، ولا تزال هاتان القصيدتان الملحنتان لهما جمهورهما العريض حتى الآن.

س 3 : وماذا عن أصوات المطربين والمطربات الذين تغنّوا بقصائدك؟

نزار:

أجمل صوت غنّى قصائدي هو المطرب الراحل عبد الحليم حافظ... وصحيح أن نجاة الصغيرة بدأت في غناء قصائدي في فترة الستينات، وغنت لي قصيدة «أيظن»، وهي القصيدة التي أدت دوراً خطيراً في انتشار قصائدي على المستوى العربي.. لأن القصيدة كانت بسيطة وتتحدث عن بنت صغيرة تتحدث عن حبها وغفرانها «ورجعتُ ما أحلى الرجوع إليه»، فنجاة الصغيرة مثّلت البطولة في قصائدي.. فأنا أحب المرأة الوديعة الرقيقة القابلة للغفران، ونجاة الصغيرة مثّلت دور المرأة الضعيفة الرقيقة في قصائدي، ولم تكن أبداً امرأة قوية، وأدّت القصيدة كما يجب أن تؤدّى، ولا أستطيع أن أمحو من ذاكرتي لغنائها البيت الذي يقول:

وبدون أن أدري تركت له يدي
لتنام كالعصفور بين يديه

فهذا الكلام لابد أن يؤدّى بنوع معين من الحنان والرقة. وقد استطاعت أن تغنيه كما أتمنى، ولكن عبد الحليم حافظ بالإضافة إلى أنه مطرب كبير كان شاعراً كبيراً جداً.. وكان إحساسه كبيراً جداً لدرجة أنني خشيت في قصيدة «رسالة من تحت الماء» ألا يفهم الجمهور البيت الذي أقول فيه «إنّي أتنفس تحت الماء.. إنّي أغرق»، فقال لي عبد الحليم إذا لم يفهم الجمهور هذه القصيدة الآن فسوف يفهمها في المستقبل، ثم إن وظيفتي كمطرب ووظيفتك كشاعر أن نعمل على رفع ذوق الجماهير.. وبالفعل غنّى عبد الحليم حافظ القصيدة وانتشرت وحفظها الناس في العالم العربي كله.. فعبد الحليم كان فناناً لديه رؤية مستقبلية.

س 4 : معنى ذلك أن للقاهرة دوراً كبيراً في انتشار شعرك على مستوى العالم العربي؟

بتواضع الشاعر الكبير يقول نزار:

القاهرة أدت دوراً كبيراً جداً في إطلاق قصائدي المغناة على مستوى العالم العربي لدرجة أنني كنت عندما أزور القاهرة في الستينات كانوا يقولون: «**جاء شاعر أيظن**»، وعندما أسافر منها يقولون: «**سافر شاعر أيظن**»، فشكوت ذلك إلى الموسيقار الراحل محمد عبد الوهاب وقلت له إنني شاعر لي عشرون ديوان شعر قبل أن تغنّي نجاة الصغيرة قصيدة «أيظن»، فردّ عبد الوهاب رداً بليغاً وقال لي: كم كتاباً توزع من دواوينك؟ فأجبته قائلاً: الديوان يوزع حوالي خمسة آلاف نسخة، فقال: إن شريط أغنية «**أيظن**» وزّع مليون نسخة...

من هنا اكتشفت أن الكلمة المغناة أقدر على انتشار الشعر والشاعر من الكلمة المطبوعة.. ثم إن شعبنا العربي يرتبط بالكلمة المغناة أكثر بكثير من الكلمة المطبوعة، فنحن شعوب تقرأ بآذانها.. والشعب العربي كله هو شعب ترانزيستور، ولذلك فإنني اعتبر أن القاهرة أدت دوراً هاماً، وبخاصة أن الإعلام المصري في فترة الستينات كان أخطر إعلام عربي وكان مسيطراً على الجغرافيا العربية كلها...

ولذلك فإني اعترف بأن مصر أدت دوراً كبيراً في حياتي وأضافت إلى شعري كل هذه القدرات الإعلامية. ولن أبالغ إذا قلت بأنني شاعر معروف في مصر أكثر من الشعراء المصريين، وهذا جميل من مصر ويدل على أن مصر ليس لديها العقدة الإقليمية...

ثم إن تحريك الوضع الثقافي العربي يأتي دائماً من مصر وعلى سبيل المثال فإن الفرقعة الشديدة التي أحدثتها قصيدة «**متى يعلنون وفاة العرب**» قد بدأت من مصر، وليس من أي بلد عربي آخر لدرجة أنه أصبح في مصر حزبان حزب مع مضمون القصيدة وحزب ضده.

س 5 : وما هو ردّ فعلك حول تلك الفرقعة التي أحدثتها «قصيدة» متى يعلنون وفاة العرب؟

نزار:

لقد فرحت جداً، حيث إنني لا أومن بالقصائد التي تمرّ مرور الكرام. فلابد لكل قصيدة أن تشعل النارٍ وبدون النار ليس هناك قصائد تستحق عناء قراءتها. ولذلك فرحت جداً بأن قصيدة «متى يعلنون وفاة العرب» قد شغلت الفكر العربي أو حسب ما يقول المتنبي تملأ الدنيا وتشغل الناس.

س 6 : يقول البعض إن مرحلة نضجك الشعري ظهرت في مرحلة شعرك السياسي وكأنك تريد أن تكفّر عن خطاياك في شعرك العاطفي؟

«يضحك شاعرنا الكبير نزار قباني هنا» ويقول:

أنا لا أطلب الغفران من أحد إلا غفران الشعر وحده. وعندما كتبت شعر الحب لم أشعر يوماً أنني قد ارتكبت خطيئة، وإن كان هناك من يعتبره خطيئة، فهذه إذن أجمل خطاياي.. أما عن السياسة والشعر السياسي فقد دخلته مضطراً لأن جهازي العصبي لم يحتمل كل هذه «التفاهات» و «الانهيارات» و «الهزائم» التي تحدث في الوطن العربي. وإذا تأملت الحالة العربية الآن ستجد أنها حالة «كُرب».

ثم إنه بعد هزيمة 1967 القاسية والشنيعة، بعدما كانت أحلامنا في عنان السماء، فجأة هبطنا على الأرض وتكسرت أضلاعنا وتاهت أحلامنا، فما كان أمامي إلا أن أصرخ من أعماقي بطريقتي.

ولا تعني كتابتي للشعر السياسي أنني تركت شعر الحب، فأنا لم أترك ولن أترك شعر الحب.. فالمرأة هي أساس الحياة وليست مجرد قميص أرتديه وقت الحاجة ثم أخلعه بعد ذلك.. المرأة جزء من حياتنا.. الحب ليس عملية يستعيرها الإنسان وقت ما يشاء، ولكن الحب زرعه الله في أعناقنا وبالتالي لا بد أن أعبر عن هذا الحب حتى أعيش كإنسان.

س 7 : أنت أحد شهود العصر فما الذي تشهد عليه في واقعنا العربي الآن؟

نزار:

إنني أعيش حالة من الوجع القومي الداخلي.. فليس من المعقول خلال ثلاثين عاماً أن نسقط من قمة أحلامنا إلى الأرض لنتفتت إلى ألف قطعة. أشهد أن عالمنا العربي يعاني من حالات مرعبة من الاهتزازات والقلاقل الموجعة.. العالم العربي سقط في مطبّات هوائية فظيعة، وجهازي العصبي لم يعد يستطيع أن يصمد أمام هذا الغش الكبير وهذه البشاعات الكبرى والانحرافات الخطيرة التي تحدث في حياتنا. وسأكون شاهد زور لو لم أنفجر، ولو لم أغط كل هذه البشاعات.. أنا شاعر مفروض عليه أن يغيّر أمته نحو الأجمل وأن أواجه كل البشاعات. أنا لا أمدح أحداً ولا أكتب عن أشياء غير موجودة ولا أبالغ في وصف ما أكتبه.

لا أحد يستحق أن أمدحه، ولذلك تجدني ربما عنيفاً وربما جارحاً كالصخر، ولكنني في النهاية أعبّر عما يجيش في صدر المواطن العربي. فالناس في بلادنا متألمون ولكنهم لا يعرفون كيف يعبّرون عن هذه الآلام. وبكل تواضع أقول إنني استطعت بهذه اللغة البسيطة التي تسمى شعراً أن أعبّر عن أعماق النفس، وهذه وظيفة الشعر والشعراء.

س8: ماذا يعني لك كشاعر إسقاط جنسية عن شاعر مثلك؟

نزار:

لا تشكل لي شيئاً على الإطلاق؛ لأنني أعتبر نفسي شاعراً أهم بكثير من أن اعتبر نفسي مواطناً لأي دولة..

الشعر هو دولتي، وأنا رئيس جمهورية الشعر، ولو تمّ إجراء استفتاء في الوطن العربي سأكون أنا رئيس جمهورية الشعر وبدون تزييف أو تزوير أو مخابرات أو شراء أصوات.

س 9 : لماذا لا تفكر فعلاً في دخول معترك العمل السياسي؟

«يضحك كثيراً ويقول» :
أعوذ بالله.. إن الجماهير قد رشحتني منذ سنوات طويلة لهذه المكانة التي وصلت إليها في قلوبهم وهذا يكفيني.. بل هذا أكثر استمراراً وأكثر تواجداً.

س 10 : هل تعتبر أن أمسيتك الشعرية في قطر مفاجأة بالنسبة لك؟

نزار:
نعم. أمسيتي الشعرية في قطر هي مفاجأة لي بكل المقاييس. وكما شرحت في الأمسية أنني منذ عشر سنوات أقمت أمسية شعرية مماثلة ولكن للأسف أنها كانت أمسية فاشلة لأنها اقتصرت على الذكور من الحضور.. أما أمسيتي هذه المرة فكان التواجد النسائي فيها كفيلاً بأن أحكم على مدى نجاحها. صعبٌ عليّ أن ألقي قصائدي أمام غابة من الذكور. فشاعر الحب يتمنى أن يرى المرأة في كل أمسياته الشعرية، والتواجد النسائي القطري في الأمسية أعطى جواً حضارياً .. لقد قفزت قطر خلال العشر سنوات التي غبت عنها قفزة حرية رائعة. لقد حضر لي في مدينة القيروان 12 ألف مستمع ومستمعة وفي قطر حضر لي 3 آلاف مستمع ومستمعة، وهذا العدد في قطر يساوي عندي عدد الحضور في القيروان. لقد كانت أمسيتي في الدوحة أمسية حضارية بمعنى الكلمة.

س 11 : أنت دائم السفر والترحال، فهل أفادتك الغربة كشاعر؟

نزار:
لو كنت جلست مثل زهير بن أبي سلمى في خيمة لكتابة قصيدة ما كان خرج معي إلا قصيدة واحدة. فالرحيل هو نصف شعري.. الشاعر عليه أن يبتعد عن المكان حتى يراه بصورة أجمل حيث أن الالتصاق الطويل بالوطن لا أهمية له.

س 12 : من هم الشعراء الجدد الذين تشهد لهم بالكفاءة والبراعة؟

نزار:

هذا سؤال اخترعته من عندك، فأنا لا أعرف من هم هؤلاء الشعراء الذين تتحدث عنهم.

«ثم يضحك ضحكة طويلة وينتهي اللقاء».

وهنا يحسن أن أذكر القارئ أن مادة الدراسة الحالية ملتزمة تقريباً بمتابعة فرص اللقاء المباشر وغير المباشر مع نزار، وليست دراسة تحليلية أو أكاديمية، مع استثناء الفصل الخاص الذي سيتضمن مجملٍ مطالعتي حول الإبداع الفني في شعر نزار والذي قرأه نزار، وأشاد به كثيراً ونشره بنفسه في جريدة «الحياة»، كما ظهرت الدراسة في الكتاب التكريمي الذي أصدرته مؤسسة سعاد الصباح بعنوان «نزار قباني شاعر لكل الأجيال» ، إشراف سعاد الصباح، الكويت، 1988 : 162-144 . وسوف أورد هذه الدراسة مشفوعةً بتعديلات وإضافات في فصل لاحق.

ج. الابن الباريلبي نداء الأم الحنون

«دمشق 1988»

بعد غياب طويل وتجوال في أرض الله الواسعة، اشتاقت دمشق إلى الابن الغالي، وتوالت جهود طيبة لاستعادته إلى الصدر الحنون بعد أن طالت غيبته في مختلف بقاع الأرض التي احتفت به، ولاسيما الأقطار العربية التي تسابقت إلى دعوته والترحيب به وتحويل نفثاته الشعرية إلى ترنيمات موسيقية وأغانٍ ومرددات عذبة يعتز بها القاصي والداني «وتسمعها العجوز فتبكي على ما فات من شبابها»، «كما كانت تقول العرب-جرير»، بعد كل هذا الطواف أبت دمشق الحنون إلا أن يعود طائر السنونو إلى حيث ينبغي أن يكون في ظل الأشواق الحانية والجموع الوامقة... وفتحت له مكتبة الأسد قاعاتها، ولم يبقَ مكان للمتأخرين إلا في ظلال أشجار الحديقة الوارفة التي زينتها المصابيح الباهرة والقلوب النابضة بالأشواق.

وفي ذلك الحين كان الأديب الدينامي رياض نعسان آغا ينشر بل ينصب

شباكه المتلهفة في عرين نخبة من أدباء سوريا الأم الحنون، مطلقاً أسئلته المشتاقة المحبوكة على أبرز من له اهتمام بديار الشعر والنثر، وسجّل آراء هؤلاء الأدباء والنقاد بعد أن ألقى نزار قصائده في رحاب مكتبة الأسد يوم 22/8/ 1988.

ثم طعّم رياض حواره مع نزار بمقتطفات من هذه الآراء ليسمع ردود نزار عليها. وفي مقدمتهم نجاة قصاب حسن الذي ربما كان أقرب الناس إلى نزار «رحم الله الاثنين». كما أتيحت لي ثلاث مشاركات حول الموضوع في الندوة، ثم إن الدكتور عبد النبي اصطيف أسهم في مداخلتين في المقابلة التي استمرت ساعات وتخللتها تفصيلات وآراء وردود مهمة أدلى بها نزار من خلال صراحته المعروفة، ومع الأسف لا يتسع المجال الحالي لمتابعتها تفصيلاً، وسأكتفي بالمداخلات التي أدليتُ بها في الندوة مع مداخلة واحدة من نجاة قصاب حسن وأخرى من د. عبد النبي اصطيف.

المقاطع الثلاثة للمداخلات:

رياض:

أنتقل إذا سمحت إلى صديق قديم لك ربما كان زميلاً لك في أيام الدراسة، وهو أستاذ لي أعتز أيضاً بأنني تتلمذت على يديه، وهو أستاذي الدكتور حسام الخطيب، وهو غني عن التعريف فهو أستاذ النقد أرجو أن تسمع رأيه أيضاً.

الدكتور حسام:

إن نزار سار على القاعدة المعروفة الذهبية، كلٌّ ميسّرٌ لما خُلق له، ولكنه أحياناً خالفها فوقع في الهوة، كيف؟. منذ البدء كان واضحاً في إبداعه، كان متغنياً بالحب، بالمرأة، بالمغامرة الغرامية، بالجنس، بوصف الجنس، هذه هي الأمور التي طلع علينا بها في الأربعينات. وقد يقول قائل إن هذه الأوصاف والأمور التي تتبعها لفتت النظر إليه لأنها كانت جديدة. نعم كانت جديدة نسبياً في منطوق الشعر في سوريا إلا أنها لم تكن جديدة في منطوق الشعر

العربي بوجه عام في ذلك الحين، أي إن نزار بما قدمه منذ البدء كان مبدعاً، والناقد الذي يستعين بحبلٍ من التاريخ، قصُر أو طال، لا يستطيع أن ينكر أن إطلالة نزار على عالم متذوقي الشعر كانت إطلالة باهرة، أي إنه بهر الناس إلى درجة أنه يمكن للمرء أن يزعم أنه مع مرور الخمسينات لم يعد بمقدور أي شاب أن يتغزل بفتاة دون أن يستعين بأشعار نزار، لم يكن ذلك ممكناً إذ أصبحت أشعار نزار الزاد الكبير للتقارب بين الجنسين، وهكذا رسالة تكفي لتفسير سيرورة شعر هذا الشاعر المبدع، أمعن نزار في قضية الجنس وقضية المرأة. ظل حائراً بين المظاهر وبين المعاني وفي هذه الناحية كتب كثيراً عن المرأة، كتب كثيراً عن أوصافها وعن مفاتنها وأبدع وبحث في التضاريس وفي الطيّات وفي خفايا النهد بالذات، ولكن مع ذلك لم يستطع أن يتوصل إلى فكرة إلى فلسفة، سواء أكانت فلسفة نظرية أم فكرة اجتماعية في هذا المجال. وأخشى أن يكون قد أخذ هو من هذه الناحية أي إن أكثر الطعون التي وجهت إليه إنما وجهت إليه من هذه الناحية. المرأة نعم هي بهجة الرجال والمجتمع والطبيعة مثلما كانت جدتنا حواء بهجة الجنة البكر وغوايتها.

ولكن المرأة أيضاً لها دور ولها حياة، هي إنسان ولا أستطيع أن أقول إن نزار أنكر إنسانية المرأة ولكن يمكن أن أتهادن مع التهمة التي وجُهت إليه وهي أنه نظر إلى المرأة من زاوية المتعة، إما استمتاع الرجل الجمالي أو استمتاعه الحسي، ولم تكن المرأة عنده شيئاً أو كياناً قائماً بذاته ولذاته. ويجب ألا يفرّنا إطلاقاً تعاطف نزار مع بعض جوانب حياة المرأة أو مع بعض شواهد الظلم الذي أحاط بالمرأة، ولاسيما تعاطفه مع البغيّ مثلاً أو مع المرأة التي يخذلها الرجل، فهذه وقفة إنسانية لا يمكن أن يتجرد منها الشاعر ولكنها لا تؤلف فلسفة عامة في موضوع المرأة.

وهاهنا أعود ثانية للاستشهاد ببواكير شعر نزار فلست أعرف شاعراً كان واعياً لموهبته ولما يريده منذ البدء مثل نزار على الرغم من أن نزار تجاوز ذلك فيما بعد. ها هو يتحدث عن نفسه وعن الجنس فيقول:

هو الجنس أحمل في جوهري هيولاه
من شاطئ المبتدا

بتركيب جسميَ جوع يحنّ لآخر
جوع يمد اليدا
«من ديوان: قالت لي السمراء»

وعلى الرغم من محاولاته المتكررة للخروج من نداءات الجنس الغريزي، وهي في الحقيقة واقع لا سبيل إلى إنكاره، فإنه في محاولاته للخروج إلى ما هو أوسع وأعمق، إلى المعنى الإنساني العام، أو إلى الفكر الاجتماعي الخاص، لم يكن موفقاً أولم يكن متسقاً، بمعنى أنه لم يستطع أن يكوّن فكرة متماسكة أو موقفاً تجاه هذه الظاهرة الأساسية في حياة البشر، وهي بعدُ سرّ بقائهم، وفي رأيي هذه هي المأخذة الأساسية على شعر نزار.

نزار:
أنا فخور وكبير بما قاله الدكتور حسام، الحقيقة أنه قرأني جيداً وفهمني جيداً وأعطى بقية النقاد درساً في أخلاقية النقد، الدكتور حسام كان راقياً جداً وحضارياً جداً في مداخلته عني، وأنا أريد أن أضع خطين تحت كلمة حضاري، لأن أكثر النقاد الحاليين يهجمون على النص بأسنانهم وأظافرهم، وبدلاً من أن يتقدموا إليه وفي يدهم وردة يتقدمون إليه وفي يدهم ساطور، لذلك أشكر أخي وصديقي الدكتور حسام على هذه الوقفة العالية، والوقفة الشامخة وأتمنى أن يتعلم منه النقاد العرب كيف يكون النقد حضارياً.

رياض:
ما تعليقك على حكاية المسألة الفلسفية التي أشار إليها؟ قضية أن نزار لم يستطع الخروج إلى فلسفة حول المرأة.

نزار:
يا سيدي، سبق أن ناقشنا هذا الموضوع! كان يعنيني دائماً أهل القضايا الحاسمة والراهنة.
سبق أن قلت إن المرأة كانت صداعنا أو الجنس كان صداعنا بصورة

عامة. وإدخالي في التهويمات الفلسفية لا يقدم للقضية أي شيء. أما هذه النظرة فقد اختلفتْ بعد ذلك اختلافاً كبيراً. الآن منذ خمس سنوات صار عندي قصائد أخرى تتناول أشياء أخرى لا علاقة لها بالإطار المادي للمرأة. أنا منذ أيام لندن 1955 كنت أبحث في أي حوارٍ مع المرأة عن الذكاء، كنت أبحث عن الثقافة أيضاً. لأول مرة كنت أول شاعرٍ في العالم العربي يستبدل كلمة «يا حبيبتي» بـ «يا صديقتي»، يعني في الأول كانت المرأة كما نعلم هي عبارة عن منسف أرز، ثم تحولت إلى وردة، ثم تحولت إلى صديقة يستطيع الإنسان أن يذهب معها إلى المسرح، أن يجلس في الكافيتريا دون أن يأخذوه إلى النيابة العامة، فليعذرني الدكتور حسام، وأعتقد أنه يفهم التطور التاريخي لموقف الشاعر.

نحنٍ في الأربعينيات كنا ننظر إلى المرأة من ثقوب الأبواب، كنا نخترعها اختراعاً، فلم يكن متاحاً لنا رؤيتها. النصّ الذي قرَأْهُ جيد جداً، ولكن في الأربعينيات لم تكن المرأة في حياتنا إطلاقاً. كنا نسرقها من ثقوب الأبواب، إذن الموقف من المرأة قد تطور. وأنا سأقرأ قصيدة اسمها «حوار مع امرأة غير ملتزمة» تؤكد الموقف الجديد لي من المرأة. أنا الآن لا أستطيع أن أهتم بعلاقة حب مع امرأة تعيش حالة أمّية سياسية أو أمّية ثقافية. لا تعنيني المرأة الخارجة من الكوافير «الحلاق» الآن إطلاقاً، أو الطالعة من حوض السباحة. هناك اليوم عصر نعيشه من التاريخ، وأنا أرفض المرأة حين تكون خارج أسوار التاريخ.

رياض:

رائع، جواب ممتاز جداً يا أستاذ نزار، فعلاً لا يجوز لنا بحق أن نقوّم شعر نزار ومواقفه من دواوينه الأولى

نزار:

أنا أنكرها هذه الدواوين: **«قالت لي السمراء»**، **«طفولة نهد»**، **«يا حبيبتي»** هذه لا أعتبرها دواوين، مرحلة أعتبرها خربشات شعرية. أما الآن فالبطلة لها وضع آخر...

رياض:
هناك تعليق للدكتور حسام الخطيب عن خصوصيات هامة في شعرك.

الدكتور حسام:
لنحاول أن نتلمس بعض مفاتيح شعره. ولا أقصد في الغزل فقط ولكن مفاتيح مجمل شعره. في رأيي أن المفتاح الأول في شعر نزار هو الموسيقا الموسيقية «النغم والحسّ اللفظي» أي الكلمة الحلوة بذاتها، وفي كل ما قاله من شعر غرامي أو وصفي أو سياسي تعلّق بهذه القيم وأبدع فيها، ولذلك قد لا أتفق معه في كثير من شعره، ولكننا لا ننكر أن شعره من الناحية الإحساسية الخالصة يحتال دائماً في وقع جميل وصحيح. إن شعره أحياناً يمكن أن يُقرأ على طريقة الشعر العمودي، ولكننا نتذكر تلك الحيلة التي احتال بها على الشعر العمودي ليبدو غير عمودي وهي حيلة التفعيلة. قالوا شعر التفعيلة فكانوا يضعون التفعيلتين أو التفعيلة الواحدة بطريقة عمودية لا أفقية وينوّعون بترتيب التفعيلات، وكان نزار معتدلاً جداً في هذا المجال. ولكن هذه الحصيلة يمكن أن تُقرأ بطريقة الشعر العمودي بسهولة. ونزار نفسه كأنما كان يتقيد بعدد التفعيلات في أغلب الأحيان.

في مجال الإبداع الفني الشكلي يمكن أن نتحدث عن القافية.

قلنا الموسيقا ها هنا تفعيلات متوازنة ومعها دائماً قافية. ويخطر لي أن أنتقل من نزار إلى قضية الشعر العربي الحديث لأقول إن تمسك نزار بالموسيقا الصافية «Le mot just[12]»أتاح له أن يظل قريباً من القلوب، في حين أن خروج شعراء الحداثة عن هذه الموسيقا الموسيقية الظاهرية أبعدهم نسبياً عن الجمهور الذي يحب الطرب. ولا أدري في أية نظرة شعرية للأدب العربي نستطيع استبعاد قضية الإطراب الموسيقي الحسي... يخيل لي أن التعلق بالوزن والقافية مع كل ما يتبعه من تنويعات، هو شيء أصيل في طبيعة الشعر العربي وفي طبيعة التجربة الفنية العربية التاريخية، ولذلك سنظل نصبو إلى هذا الأمر. والشاعر العظيم هو الذي يستطيع أن يُبقي على هذه القيم دون أن تتملكه كما تتملك الشعراء الضعاف فتسيطر عليهم وتأخذ

مكانة الإحساس المرهف، ومن هذه الناحية فإنني أشهد لنزار أنه استطاع أن يوفر دائماً الجانب الجمالي الحسي الموسيقي كما يقولون، الجمال الظاهري للموسيقا. وفيما يتعلق بالكلمات ظل نزار سيداً من سادات الكلمة الصافية

وهو دائماً منطلق بغريزته، ولا أعتقد أنه عامد، ينتقي الكلمة الموسيقية الموحية الهامسة. وأخشى أن أقول إن تجربته في الحياة الشامية ساعدته على ذلك، أعني لطافة اللهجة الشامية في الكلام، وهو يتكئ على المصطلح الشائع في لهجة الشام، ويحسن انتقاء كلمات كثيرة مما هو دارج في كلام أهل الشام، وسواء عن وعي أو لا وعي، هناك كلمات كثيرة تتردد عنده لأغراض موسيقية ذات جاذبية وإثارة..

يطول بنا الحديث إن نحن وقفنا عند هذه الأغراض ولكننا نستطيع أن نختار كلمتين أو ثلاثاً على وجه التمثيل. في رأيي أن الكلمة المفتاحية المطلقة في شعر نزار هي «نهد»، النهد يطارد نزاراً في كل مكان، في الشعر السياسي كما هو في الشعر الغرامي، والنهد عنده قضية، النهد دائماً مشرئب، دائماً متطلع إلى البعيد، دائماً يعانق الأعالي، دائماً يتحدى. فالنهد ليس مجرد كلمة حسية، النهد عنده رمز، أو ربما انطلاق خاص يوصل ما هو حسيٌّ بما هو غير حسي خاص، يوصل المحدود بالمطلق، بالخروج بالتجربة الإنسانية من أبعاد أسوارها الخاصة إلى الأبعاد المترامية المستعصية على الفهم. هل ينجح نزار في الخروج من هذه القضية سالما؟

لكن استحضار النهد دائماً بمناسبة أو غير مناسبة يمكن أن ينبئ عن هذه الرغبة وهو عادةً يحاول أن يربط بين النهد وبين المطلق

وشجعت نهديك فاستكبرا

على الله حتى فلم يسجدا

طبعاً لا يقصد هذا الكلام حرفياً وإنما بقصد أن هذا النهد يتطلع إلى أبعد من البعيد.

وفي مجال شعره السياسي دائماً يخترق النهد جمود الشعر السياسي ويبعث فيه إشعاعاً جديداً. ومن الكلمات الأخرى المهمة عند نزار: «السفر»، فدائماً

الأشياء في سفر، وصاحبها في سفر وكل شيء في سفر، والحقيقة أن تجربة نزار الشخصية هي تجربة سفر وتنقّل من مكان لآخر كأنما الوقوف يعني التجمد، والانتقال والسفر الدائم يعنيان التجدد. وهذا طبعاً ليس جديداً وإنما هو تطلع مذكور منذ القديم، ونحن لا ننسى حكمة أبيات أبي تمام:

وطـــــول مـــقـــام المــــــرء في الحـــــيّ مخـلـقٌ
لـــديـــبـــاجـــتـــيـــه فـــاغـــتـــرب تـــتـــجـــددِ

ولكن في قناعة نزار هو قضية، قضية حياة، قضية خروج كامل عن مألوفية الحياة وقواعدها وقوامها.»[13]

ومع السفر هناك العصفور.. «العصفور» هو البشارة - هو دمشق - هو النعومة، إذاً العصفور رمز الأمل الذي يحمل لبني الإنسان بشرى سارة ويفتح لهم الكوى على آفاق الحرية والانطلاق إلى الوجود الأرحب. ويقترن العصفور بالألفاظ الدمشقية المختلفة عند نزار لأن الوجود عنده مكتحل دائماً بنعومة دمشق.

نزار:

يستمر صديقنا الدكتور حسام في أن يكون رائعاً. والحقيقة أن اللقطات الأخيرة التي اكتشفها هي أنا «نزار»، يعني المفاتيح التي وضع يده عليها هي مفاتيحي. طبعاً لن أناقشه، لن أعلق على ما قاله عن الموسيقا لأن الشعر عندي هو الموسيقا كما كان عند «فاليري» أما أن يكتشف الرمز الحقيقي للنهد، لكلمة النهد، الذي أسيء تفسيره جداً، دكتور حسام وقف كما تعودنا منه الموقف الحضاري، الحقيقة النهد عندي ليس مصدراً أو ينبوعاً من ينابيع اللذة، إنه طموح دائم للأعلى للتفوق للتمرد للغضب للثورة، وقد سبق أن قلت في إحدى قصائدي وقبل ذلك: النهد مرةً عندي ديك ومرةً سيف ذهبي ومرةً حصان كما قلت في قصيدتي:

---

13. سنعود بالتفصيل إلى هذه النقاط الأساسية في فصلٍ لاحق.

كان نهداك حصانين بلا سرج
وكانا يشربان الماء من قعر المرايا
وأنا من أمة تحترم الخيل
وما للخيل من طبعٍ كريم وسجايا

فهذه اللقطة لدى الدكتور حسام أذهلتني الحقيقة.

اللقطة الثانية هي قضية العصفور، فالعصفور هو أيضاً مغامر. أنا لا أحب الأشياء الثابتة، أنا أفضل دائما الأشياء التي تغيّر عناوينها، لا الأشياء الثابتة كالشجرة مثلاً، العصفور هو رمز الرحيل رمز البحث دائماً عن المجهول والتحليق في الفضاءات الخارجية، لذلك اخترت للتعليق على ما قاله الدكتور حسام قصيدة جديدة من قصائدي، اسمها «حزب المطر»، أقول فيها:

أنا لا أسكن في أي مكان
إن عنواني هو اللا مُنتَظَر
مبحراً كالسمك الوحشيِّ في هذا المدى
في دمي نارٌ وفي عيني شرر
ذاهباً أبحث عن حريةِ الريحِ التي
يتقنها كل الغجر
راكضاً خلف غمامٍ أخضر
شارباً بالعين آلافَ الصوَر
ذاهباً حتى نهاياتِ السفر

وهنا أشير إلى السفر الذي أشار إليه الدكتور حسام :

مبحراً نحو فضاء آخر
نافضاً عني غباريَ
ناسياً اسمي
وأسماء النباتات وتاريخ الشجر
هارباً من هذه الشمس التي

تجلدني بكرابيج الضجر
هارباً من مدنٍ
نامت قروناً تحت أقدام القمر
تاركاً خلفي عيوناً من زجاج
وسماءً من حجر
ومضافات تميم ومضر
لا تقولي لا تقولي عُدْ إلى الشمس
فإني أنتمي الآن إلى حزب المطر

رياض:
ألست القائل «ومن الكيّ قد يجيء الشفاء». هذا من قولك في قصيدة قديمة في مرحلة الصراخ الفني الهائل الذي ترك دوياً كبيراً في كل أرجاء الوطن العربي. أنتقل أستاذ نزار مرةً أخرى إلى الأستاذ الدكتور حسام الخطيب.

الدكتور حسام:
وهنا لا أقول الشعر السياسي وإنما أقول شعر المناسبات، لماذا أسميه شعر المناسبات؟. هذه التسمية تنطبق على الكل، على جميع الشعراء العرب المعاصرين، إنهم لم يطرقوا موضوعات سياسية بل انطلقوا من فكر شعراء الطليعة الملتزمة ذاتياً، هؤلاء الشعراء مثل نزار قباني وأبناء جيله كانوا يعانقون المناسبات القومية والوطنية ويحاولون أن يغنوا لها أو يبكوا حسب ما تكون الظروف، ولكن في كل ما قدمه نزار وبكل ما قدموه هناك محدودية في مجمل إطار المناسبة السياسية. ندر منهم من خرج عن معاني اللحظة ومن بين كل شعر المناسبات هذا تصمد بضع قصائد فقط لدى نزار وغيره من الشعراء. أما القصائد الأخرى فإنها تساقط كسفاً لأنها تبدو أشلاءً من إشارات لوقائع مرتبطة بأزمان وأمكنة معينة لا يستطيع القارئ فيما بعد أن يلم أشتاتها، فنحن في مرحلة انتقالٍ من جيل إلى جيل بمعنى أن جيلنا إذا قرأ قصيدةً عن قضية فلسطين 1948 يستطيع أن يفهم الملابسات التي تضمها أشلاء القصيدة، ولكنّ فتىً ناشئاً يحب الشعر ما عساه أن يفهم سوى

بعض الأشلاء التي تضمّها القصيدة؟ هنا مقتل شعر المناسبات، ولكل قاعدة استثناء، وأستطيع أن أستثني من شعر نزار في المناسبات قصيدة جميلة جداً ومؤثرة هي بعنوان «بكائية لجمال عبد الناصر»، هذه القصيدة تمتاز بشيء خاص هو أنها ليست مجرد صدى للمشاعر العامة في ذلك الحين، ولكنها محاولة لتلبّس دواخل الجمهور، محاولة لدمج الصوت الفردي مع الصوت العام أو الجماعي في ابتعاد كامل عن التقريرية التي درجت في شعر المناسبات، وكذلك في محاولة لتعمّق الذات ولنخل الذات الجماعية ووضع هذه الذات أمام مسؤولية تاريخية، وإنني سأسمح لنفسي بمقطع قصير من هذه القصيدة - ليلاحظ المشاهد / السامع بساطة الكلام وعمقه في آنٍ واحد:

«شعر قراءة الدكتور حسام»:

قتلناكَ.. يا حُبّنا وهوانا
وكنتَ الصديقَ، وكنتَ الصدوق ..َوكنتَ أبانا
وحينَ غسلنا يدينا.. اكتشفنا بأنّا قتلنا مُنانا
وأنَّ دماءكَ فوقَ الوسادة .. كانتْ دمانا
نفضتَ غبارَ الدراويشِ عنّا.. أعدتَ إلينا صبانا
وسافرتَ فينا إلى المستَحيل .. وعلمتنا الزهوَ والعنفوانا
ولكننا
حينَ طالَ المسيرُ علينا
وطالتْ أظافرُنا ولحانا
قتلنا الحصانا..
فتبّتْ يدانا .. فتبّتْ يدانا

أحياناً يضيء نزار الشعر السياسي بلمسة فخر، في انتصابة نهد، في التواءة عنق، بشَعر مسترسل فيعطيه شيئاً ما بتقطيع الشعر مدهشاً وغير مألوفَ. مع الشعر السياسي وشعر المناسبات لا بد أن نذكر دمشق وحنين نزار لدمشق وهنا يكفي أن نذكر تلك الجملة العظيمة التي أفادها نزار في المقدمة التي قدم فيها لأمسيته الشعرية في مكتبة الأسد بدمشق «22/9/ 1988». يقول

نثراً، ولكنه شعر:

إن جغرافية جسدي هي استمرار لجغرافية الشام حتى إنني لا أعرف أين تبدأ تضاريس جسدي ولا أين تنتهي تضاريس قاسيون.

أحياناً كثيرة نستطيع أن نقول إن دمشق هي نزار ونزار هو دمشق.

نزار:

يستمر الدكتور حسام في أن يكون جميلاً، لكنني أريد أن أخالفه في قضية شعر المناسبة. فكلمة المناسبة أعتبرها لا تعبر عن الواقع فالحياة كلها مناسبة، فمن أين يؤخذ الماء؟.. أنا أوثر أن أستعمل بدل كلمة شعر المناسبة «شعر الحدث التاريخي»، فموت عبد الناصر لم يكن مناسبة إنما كان حادثاً سياسياً كبيراً، وثورة أطفال الحجارة لم تكن مناسبة وإنما هي حادث سياسي وقومي كبير. وقد آن لنا أن نشطب هذا القاموس القديم للنقد ونستعيض عنه بقاموس جديد.

مداخلة الأستاذ نجاة قصاب حسن:

في مسألة الحب رأى نزار أن الحب ملح الحياة، ولكن هذا الحب في بلادنا، الذي ننظمه ونحتفل له ونفرح به ونقيم له المناسبات الجليلة - أليس كذلك يا أخي نزار - هذا الحب مطارد، فكأنما الحب عبارة عن لحاف ينكمش تحته الناس رجالاً ونساء فإذا خطر لأحدهم أن هذا اللحاف لحاف التقاليد، فإذا خطر لأحدهم أن يمد رجله قليلاً خارج هذا اللحاف كان بانتظاره الفلقة. الحب فيه عدد من الممنوعات، من التابو، من الأشياء التي لا يجوز الكلام فيها، كسرها جميعاً. تحدث في الحب واجترأ عليه وعرّى عيوب الناس في الحب، وعرّى الكذب في الحب، ولكنه لم يكن يريد أن يهين الحب أو يهين المرأة، لقد حمل على ذَكَريّة الرجال، على هذه الصفة التي تجعلهم أبعد عن الجمال وأحياناً أقرب إلى القبح. لم يتحدث نزار عن نفسه، لم يكن هو الرجل اليعسوب الذي يطوف على زهرات كثيرات، على العكس في حياته الشخصية، كلنا نعرف أنه ارتبط بالحب برباطات قوية، وقصيدته في بلقيس، زوجته الحبيبة التي فقدها، تشهد أن الحب عنده حب متين. لم يكن - بتعبير آخر - لم يكن فاسقاً، ولا كان طوافاً، كان في الحب صادقاً، وإذا تكلم من قصيدة إلى أخرى ومن حين إلى آخر، عن شيء آخر ولون آخر من الحب، فلكي يعرّي

الزيف الذي يراد به أن تشوه أجمل عاطفة في تاريخ الإنسانية، العاطفة التي هي أساس وجود الإنسان واستمراره، ولو كان الحديث عن الحب يرذّل صاحبه لما كان كتب الإمام ابن حزم زعيم المذهب الظاهري «**طوق الحمامة**»، وهو حلية في باب الحب مدهشة، ولا كتب الإمام العارف بالله ابن قيم الجوزية أحد كبار المتشددين في الدين كتابه «**روضة المحبين ونزهة المشتاقين**»، ولو كان الحب مطارداً وممنوعاً لما كان العرب أفردوا له خمسين اسماً، ونادراً ما يفرد مثل هذا العدد إلا لقيمة كبيرة، إذن فنزار في حياته وفي شعره كان الرجل الصادق.

نزار:

لا يمكن أن أصبر على هذا المطر الذي أغرقني به صديقي وحبيبي الموسيقي الشاعر المحامي الفنان نجاة قصاب حسن، أشعرني أو بللني بأمطار من الحنان لم أعرفها من قبل. ما قاله نجاة كان سمفونية ولم يقل سمفونية ناقصة على طريقة «شوبرت»، وإنما كان على طريقة السمفونيات العظيمة كالثالثة والخامسة «لبيتهوفن». أهم ما في نجاة أنه تسرب إلى خلاياي وقال أشياء عجز عنها كبار النقاد، وأهم ما في مرافعته عني أنه اكتشف براءتي في حين أن الدنيا كلها تدينني بالتعهّر وبأنني خرجت عن الدائرة الأخلاقية. بينما أنا في الحقيقة أنا إنسان متوحّد، وأنا إنسان غير تعددي فيما يتعلق بالنساء، وبعد قليل سوف نقرأ مقاطع من قصيدة بلقيس تؤكد ما قاله أستاذنا نجاة. الصورة الرائعة التي أدهشتني في حديث صديقنا نجاة هو أن الشرق كله مغطى بلحاف التقاليد والتابوات والمحرمات، وأن أي رجل أو امرأة يجرؤ أن يمد رجله خارج اللحاف وضع رجله في الفلقة. وهنا أريد أن أطمئن صديقي نجاة أنني بعد أربعين عاماً من النضال والقتال بالأسنان والأظافر والسلاح الأبيض استطعت أن أنتّف هذا اللحاف قطنةً قطنة، حتى استطاع الرجال والنساء أن يمدوا أصابعهم خارجه دون أن يتعرضوا للفلقة.

رياض:

إن الكلام الذي قاله الأستاذ نجاة يؤكد أنه يفهمك جيداً.

نزار:

أكثر مما أفهم نفسي. لقد بهرني الأستاذ نجاة فيما قاله لأن غريزة المحامي فيه، دفعته لكي يخرجني من السجن الذي وضعني فيه أدعياء الشعر وأدعياء النقد وأدعياء الأخلاق.

رياض:

الحقيقة عندما ذكر ابن القيم الجوزية وعندما ذكر ابن حزم الأندلسي، نحن أيضاً بوسعنا أن نتذكر الكثير من هؤلاء الرجال الفاضلين الذين تحدثوا عن الحب دون حرج لأن الحب كما قال الأستاذ نجاة، أجمل عاطفة إنسانية عبر التاريخ كله.

مداخلة د. عبد النبي اصطيف:

تفرغ نزار قباني لفنه وإخلاصه له يغري بمقارنته بأمير الشعراء في العصر الحديث «أحمد شوقي»،كلاهما تفرغ لفنه، وكلاهما بلغ جهوداً كبيرة من أجل صقل هذا الفن. شوقي جعله ينضوي بشكل أو بآخرٍ تحت ظل حماية المؤسسة الحاكمة، نزار من جهة أخرى فضّل أن يبقى بعيداً ولهذا نجده في فترة من فترات حياته ابتعد عن العمل الوظيفي وفضل أن يستقل مادياً. لماذا المقارنة؟ لأن شوقي الذي أمّر على الشعر العربي في فترة ما، استطاع أن يرقى أو يطوّع اللغة السائدة في عصره لتصبح لغة شعرية من خلال توظيفه لها التوظيف الشعري الذي حدثنا عنه «رومان جاكسون».

كذلك نزار استطاع أن يوظف لغة الحياة اليومية التي نسمعها كلها يوم نتبادلها كل يوم، التوظيف الشعري الحقيقي أي استطاع أن يرقى بلغة الحياة اليومية إلى لغة الشعر، شوقي كان يؤرقه نموذج قديم يحاول أن يحاكيه وأن يتفوق عليه، نزار من جهة أخرى لم يكن هذا النموذج القديم يؤرقه بالطريقة نفسها، لأنه كان يؤرقه أنه كان يريد أن يخرج عليه ليس فقط من الناحية الفنية، وإنما من الناحية الاجتماعية. ولنتذكر أن مسألة اللغة في شعر نزار، مسألة هامة يمكننا أن نلاحظ ذلك من خلال قصيدته «ترصيع من ذهب على سيفٍ دمشقي- حوار مع أعرابي أضاع فرسه» وانشغاله باللغة يكاد يكون ملحوظاً من خلال شعره كله.

نزار:

أستغرب أن يقارنني الدكتور مع شوقي، والحقيقة أنه ليس هنا وجه للشبه بيني وبين شوقي، فشوقي هو محصول طبقي في حين أنا محصول شعبي وطني، شوقي كان صدىً للآخرين وأذناً للشعراء القدامى مثل المتنبي. البحتري. أبو نواس. أما أنا فلم يكن لي آباء في الشعر. ما تتلمذت على شعر المعري، ولم أقرأ تعاليم سليمان الحكيم، إنني في الشعر لا آباء لي؛ فلقد ألقيت آبائي في الجحيم، من هو الشاعر يا سيدي؟ من هو الشاعر يا سيدتي؟ هو إن مشى، مشى فوق الصراط المستقيم.

مسك الختام

يا ليلةً بإلقاءِ حيٍ ، وما كان شيء أحلى من إلقاء نزار:

هـــذي دمـشـــق وهـــذي الــكـــأس والـــراح
إني أحـــب وبـــعـــض الحـــب ذبـــاح

أنـــا الــدمــشــقــي لــو شــرحــتــمُ جــســدي
لــســـال مــنــه عــنــاقــيــد وتــفـــاح

ولـــو فــتــحــتــم شــرايــيــنــي بمــديــتــكــم
ســمــعــتــمُ في دمـــي أصـــواتَ مـــن راحـــوا

زراعـــة الــقــلــب تــشــفــي بــعــض مـــن عــشــقــوا
ومـــا لــقــلــبــي إن أحــبــبــت جـــراح

ألا تـــزال بــخــيــر دارُ فـــاطـــمـــة
فـــالــنــهــد مــســتــنــفــر والــكــحــل صــداح

إن الـــنـــبـــيـــذ هـــنـــا نـــار مـــعـــطـــرة
فـــهـــل عـــيـــون نـــســـاء الـــشـــام أقـــداح؟

مـــآذن الـــشـــام تـــبـــكـــي إذ تـــعـــانـــقـــني
ولـــلـــمـــآذن كـــالأشـــجـــار أرواح

لـــلـــيـــاســـمـــين حـــقـــوق في مـــنـــازلـــنـــا
وقـــطـــة الـــبـــيـــت تـــغـــفـــو حـــيـــث تـــرتـــاح

طـــاحـــونـــة الـــبن جـــزء مـــن طـــفـــولـــتـــنـــا
فـــكـــيـــف نـــنـــســـى وعـــطـــر الـــهـــال فـــواح

القسم الأول

3 - مراسلات متبادلة

قبيل الرحيل

هـذه بضـع رسـائـل جـرى تـبـادلـهـا مـع نـزار في أعقاب زيارته للدوحة ، وذلك إلى جانب بعض المكالمات الهاتفية، وتكشف هـذه الرسائل عن وفـائـه ومـروءتـه، وكـذلـك جـمـال خـطـه الـذي يعكس التماع شخصيته وألق نثره.

أما رسائلي الموجهة له فكنت أهمُّ بإرسالها إليه مطبوعةً على الآلـة الكاتبـة في ذلـك الـوقـت، ولـكـنـنـي خـشـيـت أن يـرى في ذلـك اصـطـنـاعاً، وهو أمير الذوق والإحساس فأقلعت عن ذلك، وأكـرهـت أصـابـعـي عـلـى الـتـريّـث في الكتابة ... ولكن بعد إرسال رسالتين بخط يدي انتبهت إلى الـفـرق بـين أنـاقـة خطـه وتـواضـع خطـي، فلجأت إلى الآلة الكاتبة في الرسائل التالية.

وكان تبادل هذه الرسائل يجري بالفاكس ولا يخلو من التشويه.

Mr. Nizar Kabbani   Fax 0171-2456659

أيها الجميل المبدع نزار قباني

ما زلنا نعيش على زيارتك للدوحة، فمتى الموعد
أن تكون العودة؟ «أنا بعلك في الدوحة؟» وأطرب
وأعجب لمعنوياتك العالية، أطال الله عمرك وقوّى
من عزمك.
حرّضتني قصيدة «عاشق بدوي في عصر الحداثة». ومن
ليلة كلها صفو وقمر فتشت عن أوراقي القديمة، وكان
باقي نعمان آغا، وجدته الأخرى أعطاني بنفسه
قبل عشر سنوات حديث لي مع نزار عام ١٩٨٨ فيما أظن.
المهم قارنت الحديث القديم ببعض انطباعات عن
القصيدة (الحديثة)، فكانا مقالاً من ذلك حديث قديم
جديد أو (أندريه عاشق بدوي مع قصيدة حديثة)!
المقالة وهي بيت دراسة طويلة نسبياً قطعتها
تسبيه وبودي لو أنشرها في «الراية» وقد كتبتها
بعد شهر تماماً من نشر قصيدتك، ولكن لي تجربة
سابقة معهم، فيوم توفي حكيم الجابري كتبت
انطباعات من أيامه الأخيرة إذ كنت معه في بلوران
قبل أيام من وفاته ولكنهم لم ينشروها ولم يردوها
عليّ، وليست عندي كما تعلم مشكلة نشر، إذ سوف تظهر
مقالة الجابري الشهر القادم (آذار) في كل من «الفيصل»
و«آفاق الثقافة»، كما ظهرت في «الراية» القطرية.
الآن، إذا كانت لديك رغبة هنالك بأنني أفضل أن
أرسل لك المقال لتطلع عليه وحتى يعرف الناس
أية علاقة حب تجمع المتقدم والناشئ، وإلا فإنني
سأنشر الدراسة هنا في «الراية» وفي «المعرفة»
بدمشق، وفيما قبل ذلك دام فضلك.
أرجو أن أسمع منك قريباً، منتظر
الجواب على فاكس «الراية» 974-350476
لأن فكسي على الكومبيوتر، ولا يتفقّس إلا بعد مفاوض!
أخوك ومحبك الذي لا ينساك   ١٦/٤/٩٧
حسام الخطيب

N. KABBANI
5 HERBERT MANSIONS
35 SLOANE STREET
LONDON SW1X 9LP
Tel: 0044 - 171- 2365773
FAX: 0044171- 2456659

لندن ١٩/٣/١٩٩٧

أخي الحبيب الدكتور حسام الخطيب

عن طريق جريدة الراية

الدوحة - قطر

فرحتُ بصوتك الجميل، الذي جعل أيامي في الدوحة سمناً وعسلاً.
أرجو أن تكون والعائلة العزيزة بخير، وأن يتاح لي فرصة ثانية
للاستمتاع بجوارك المتميز.

سعدتُ أنك تتابع ما أنشره في (الحياة). وأسأل الله
أن يُبقي الحركة في الأصابع، والنارَ في القلب.

يا ليتك أخبرتني عن بحثك القديم عن الحداثة في قصيدتي وأنا
متأكد أنه مقال جيد ككل مقالاتك، إذن لكنتُ تكلمتُ معه ( )
بشأنه في حينه.

ومع هذا إذا كان المقال غير منشور في مكانٍ آخر.
فيمكنك إرساله بالبريد الجوي إليّ، لا بالفاكس لأنه في بعض
الحالات يأكل الحروف. وحبذا لو كان مضروباً على الآلة الطابعة.
ومقسّماً إلى قسمين. مع إشارة إلى وضعك الأكاديمي في ذيل الصفحة الأولى.

عنواني موجود في رأس الصفحة، فأرجو أن أستلم المقال
قريباً لأقوم باللازم، وهذا ما يسعدني.

مع الحب الكبير.

أخوك
نزار قباني

بسم الله الرحمن الرحيم

STATE OF QATAR
The University of Qatar
Faculty of Humanities
Professor Hussam Al Khateeb

دولة قطر
جامعة قطر
كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية
قسم اللغة العربية

د. حسام الخطيب

Ref:

Date: 26.2.97

أخي الحبيب الشاعر نزار قباني

ما أسعدني بهذا التواصل. كأني محبٌّ كان ينتظر (إشارة) من المحبوب.

تأخرت في الإجابة بسبب مشكلة الطباعة وحرصي على أن يرتدي النص حلة مقبولة تغطي بعض عيوبه. ولكنه ما أسهل الكتابة حين تقارن بمشقة التعامل مع الطابعين، الذين لا يعرفون سوى لغة الوجه ويتطوعون لتصحيح كلامنا الأدبي من خلال قاموسهم. تصوّر أن كلمة (الزهور) في قصيدتك أحوجتها للتصحيح ثلاث مرات والطابع يضيف عليها دائماً حرف الراء لتصبح (الزهورر)!

ها هو النص أخيراً بين يديك. إن رأيت أنه تخلّف عن إبّانه وفاته القطار (قطار الحياة؟) فلا تكترث، إذ أستطيع نشره في المجلات. وهو حتماً لم ينشر في السابق. المهم أن تخبرني بالنتيجة. وأرجو ألا تقدمه للنشر إلا إذا رأيته مناسباً! وأرحّب فعلاً بأية ملاحظة لك.

تجد مع الرسالة نسخة من مقال لي جديد بمناسبة ذكرى الوحدة بين سورية ومصر. وترى في خاتمته كيف أن نزاراً حاضر في الذهن والوجدان دائماً.

حيّاك الله وحقّق لك دوام توهج الشعلة.

حسام الخطيب

فاكس الراية 974-350476

P. O. Box 2713 * DOHA - QATAR * Cable: UNIVQATAR * Tel: 832222 * Telex: 4630 UNVSTY DH

17-02-15 09:35 4471 245 6659 N.KABBANI LONDON

نزار قباني - لندن
FAX 0171 245 66

لندن ١٥/٢/١٩٩٧

أخي الغالي الدكتور حسام الخطيب
عن طريق جريدة (الراية)
قطر

حبي وأشواقي،

فتحت عينيّ اليوم على القسم الأول من مقالتك الثمينة في
جريدة (الحياة) السبت ١٥/٢/١٩٩٧ الصفحة ٢١
سعدت جداً بنشرها في مكان متميز.. وعلى مساحة متميزة.
فأرجو أن تلحق بنشرها.. قبل أن تطير الجريدة....

لك الشكر العميق. والحب المقيم.

أخوك
نزار قباني

الدكتور حسام الدين الخطيب
بواسطة جريدة (الراية)
الدوحة

الأحد ١٦ آذار ١٩٩٧

حبيبنا حسام.

صباح جميل آخر..

فقد صدر اليوم الأحد ٩٧/٣/١٦ في جريدة (الحياة) الجزء الثاني من مقالك التاريخي. وهو رائع حقاً.

وقد سعدت لنفسي باستبدال مقطع شعري من صاحب الجلالة (الهدهد) بمقطع آخر. لأن المقطع الذي وضعته انت كان كفيلاً بأن يمنع الجريدة من دخول أي مكان....

هل اتصل بك الدكتور محمد يوسف نجم من بيروت بشأن إصدار كتاب عني كتب فيه كتّاب ونقاد عرب من كل الدول العربية تحت عنوان (نزار قباني - شاعر لكل الأجيال).

لقد أعطيتهم اسمك، لأنه يسعدني أن تشارك. وأنا أقترح إذا وصلتك رسالة الدكتور نجم أن تبعث إليه بمقالتك الجميلة في (الحياة). فهل لديك نسخة أنيقة مثل التي بعثتها إليّ، علماً بأن نجم يريد مقالاً جديداً.

أرجو إعطائي رقم تلفونك في المنزل لأنني أضعته.

ختاماً أرجو أن أسمع منك بأقرب فرصة.

ولك الشكر والحب دائماً.

أخوك
نزار قباني

P.S: أرجو أن تتصل بالدكتور محمد يوسف نجم تلفونياً إلى القاهرة حيث يوجد الآن: لأنه يريد أيضاً تلفونك في الدوحة.

تلفون الدكتور نجم - القاهرة
00 202 - 5789685
Fax 00 202 5787096

الدوحة : 97/3/22

أخي الحبيب الشاعر نزار قباني

كم أنا سعيد بالتواصل مع إنسان أصيل دفء القلب توازى عظمته الشخصية مع عظمة إبداعه. وهذا بالضبط ما افتقدته دائماً عند كثير من المبدعين الذين التقيتهم حتى بتُّ – إذا أعجبت بإبداع أديب ما – أتجنب الاختلاط به حتى لا تتبدد الهالة !

أخي نزار .

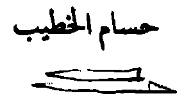
لا أستطيع أن اصف لك مدى إقبال المتعلمين هنا على مقالتيْ (الحياة) . فهم عادة يقرأون لك ويسمعونك ولكن نادراً ما يعثرون على شيء يقال عنك. وقد صُوِّرت المقالتان وجرى تداولهما مع أن ذلك ليس في مصلحة بقائي في الدوحة ! ! تأمل أستاذاً وقوراً يكتب عن شاعر حب وبهذه اللهجة. وقد عاتبني بمودة عميد كلية التربية هنا، وهو من المعجبين بأدبك .

اتصلت بالدكتور نجم في القاهرة واتفقنا على التواصل المستمر. وبعد أن لمست صدى المقالتين لدى الناس، ولا أكتمك بعد أن قرأتهما بشكلهما المطبوع وإخراجهما الجيد، أُعجبتُ أنا أيضاً بهما (تذكرت كلمة سمرست موم في سيرته الذاتية عن The magic of the Printed word) ، وأوافقك على أنهما يجب أن تصدرا في الكتاب، ولاسيما في كتاب عنوانه "نزار قباني – شاعر لكل الأجيال" . فهذا هو موضوع المقالتين، وكأنني كنت أكتب مقدمة للكتاب. لعلك تفلح في إقناع نجم بذلك، وإذا كانت المسألة تتعلق بالمكافأة فهو مسامَح.

التغيير الذي قمتَ به طمأنني إذ كنت متوجساً من ذلك البيت (المتوحش) في زمن أصبحت فيه الحقيقة (وحشاً) يتفادى الناس مواجهته.

لك محبتي الراسخة

حسام الخطيب



N. KABBANI
5 HERBERT MANSIONS
35 SLOANE STREET
LONDON SW1X 9LP
TEL: (0171) - 2355773
FAX: (0171) - 2456659

لندن ٣٠ آذار ١٩٩٧

الحبيب حسام

أسعدتني رسائلك الأخيرة. وأسعدني أكثر أن يقبل المثقفون على مقالتيك الرائعتين نقلاً، وتصويراً، واستنساخاً.. حتى صارتا كالنحلة الدستلمندية (دوللي)...

إنني فخور جداً بما كتبته عني، وأعتبره من أفضل وأعمق ما كُتب. لأنّ كل نقادي مع الأسف.. كانوا يلهثون وراء شعري.. ويحاولون التعلق بعربة الخيل.. دون جدوى..

أما المساطيل والأميّون من أشباه المثقفين عندك.. فليس بغريب عنهم هذا التفكير. ومن يدري فربما لو كتبتَ عن شاعرٍ اسرائيلي عشق هذا الحقد والخذلان.. لجعلوا منك عميداً للجامعة...

لا حول ولا قوّة إلّا بالله...

على كلٍ إن أية جامعة في الدنيا تتشرف بأن تضمّك بين ذراعيها. فلا تكترث بجوقة المتخلفين عن الثقافة.

قرأتُ مقالتك عن الوحدة المفقودة.. فأثارت جراحي... فهل من المعقول بعد ثلاثين عاماً فقط من هذا الحلم الرائع... أن ندخل في مرحلة الانقراض القومي.؟ لأن كلمة الانحطاط قليلة علينا..

لم أتمكن من الاتصال بالدكتور نجم بشأن الكتاب، وأنا متفق معك في أن المقالتين تنسجمان جداً مع موضوع الكتاب ومع عنوانه. لكن ماذا أفعل إذا كان الدكتور نجم طامعاً في الحصول على جوهرة جديدة منك.. رغم أني مبهور بجوهرتيك القديمتين...

على كل ليس هناك مشكلة. فالمهم أن يتوهّج إسمك الحبيب على صفحات الكتاب.

ختاماً لك الحب الكبير الذي تعرف، وتحياتي الى عائلتك الغالية. والسلام للحبيب.

نزار قباني.

الدوحة: 97/5/21

الحبيب نزار، أيها الجمال المغرّد على أغصان المدى.

علمت مؤخراً بنبأ العملية الجراحية، بل اقتطفته اقتطافاً عابراً من مقالة لعرفان نظام الدين .

لم أفهم ما هي العملية. لعلك لا تضنُّ عليّ بما يطمئن قلبي عليك.

لا أدري أين كان مخبأ (قبل أن نلتقي ثانية) كل هذا الحب الذي يعمر شغاف القلب تجاهك، ولعله ترجمة فردية لذاكرة جماعية مختزنة.

بانتظار خبرٍ منك تقرّ به العين ويهدأ العصب، أرجو أن تقبل هذه الأبيات التي انقلها الآن من الذاكرة دون مراجعتها، وهي تبدو لي أحياناً من أجمل ما حفظته في موضوع مرض الحبيب، وأحياناً أجدها مصطنعة. قل: كيف تراها ؟ !

ماذا يريد السقام من قمرٍ	كل جمال لوجهه تبعُ
غيّر من لونه وصفَّره	فزيد فيه الجمال والبدع
ما يبتغي؟ جارَ في محاسنه	أما له في القباح متسع؟
لو كان يبغي الفداء قلت له	ها أنا دون الحبيب ياوجع!

مع تحيات أم الأمين وأفراد الأسرة لك ولمن حولك وتمنيات شفاءٍ ناجز.

حسام الخطيب

أخي الحبيب نزار

إن العين لتدمع كلما وقعتُ على كلمة طيبة في مجلة أو جريدة تذكر شاعر العصر والناس وتتمنى له الشفاء. خلال بضعة الأشهر الفائتة كُتبتْ عن نزار مئات الخواطر حافلةً بالتعاطف الإنساني والإعجاب والتمنيات، وهنا في الخليج، كما تعلم، تعبّر أعظم دعوة دعوةُ طويل العمر، وأطال الله عمره. يا نزار. ليهنك هذا الوفاء الطوعي من مشرق الوطن العربي إلى مغربه، وأحياناً – صدقني – تأتي الدعوات بالشفاء من أناسٍ لا يخطر على بالٍ أنهم من رهط الشعر.

وهذا مدعاة للتفاؤل وعودة الأمل. فقد كنت دائماً أعتقد – وكتبت في هذا الموضوع – أن الأمة أخفقت في صوغ النماذج والاتفاق على الرموز العامة، وهذا من عوارض تشتتها بل وضعف أدبها الروائي، ولم يبقَ إلا الرموز المصطنعة (المفبركة)، أو الرموز القديمة التي – على جلالها – يصعب أن تروي ظمأ الجيل.

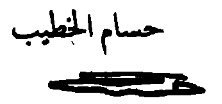
أرسل لك مع هذه الرسالة مقالة لطيفة كتبها زميلنا السوداني بابكر عيسى مدير تحرير جريدة الراية، وهو كاتب سياسي لا يعطف كثيراً على روضة الشعر وقد ذكر لي أنه سمى ابنه نزاراً تيمناً بشاعريتك. هذا الذي صنعته يا نزار مدعاة لفخرنا وإدلالنا مثلاً على الانكليز الذين صنعوا من الأميرة المغناج معجزة مطلية بمختلف أشكال المساحيق. أما أنموذجنا فهو أبداً ضاحي الحيا للهجير ورأد الضحى.

طمئِنّي عن صحتك وسلامي لجميع من حولك ولاسيما الدكتور صباح ملك الصباحة.

أم الأمين وابنتاي ديمة ورافنة ولفيف الأسرة كلهم يبعثون بالتحيات العاطرة.

نوفمبر 1997

حسام الخطيب



الإهداءات على الدواوين

من نزار

الى صديق الأيام الجميلة،
ورفيقي على دروب الحرية
والشعر..
الدكتور حسام الخطيب.
بحب واعتزاز.

الدوحة ١٩٩٥/٥/٨
نزار

أنا رجلٌ واحدٌ
وأنتِ قبيلةٌ من النساءْ

أخي وصديقي الكبير
الدكتور حسام الخطيب
في القلب دائماً .

الدوحة ١٩٩٥/٥/٨ نزار قباني

خمسون عاماً
في مديح النساء

القسم الأول

4 - الوداع الأخير

كتب الكثير الكثير في وداع نزار قباني، وكانت جنازته في دمشق دليلاً قاطعاً على عمق تأثيره في وجدان أهله وشعبه، إذ ذهبت المدينة لوداعه طوعاً بشيبها وشبانها ورجالها ونسائها على اختلاف مشاربهم وميولهم وانتمائهم الفكري والسياسي والثقافي لتقول له نحن ما زلنا على العهد، وما زلنا نقدس الكلمة الصافية ومازال الشعر ديوان العرب أبداً ومفخرة النسب.

وفيما يلي كلمتان بمناسبة وفاة الفقيد وأربعينيته، لكاتب هذه السطور، وكلمة أديبة قطرية رائدة، واختيرت هذه الكلمة للتذكير بما تركته في قطر من حزنٍ على فقيد الأدب، ولاسيما في الوسط النسائي المثقف.

أ . يذوي الجسد ، ويزهر اللغز

أيها الحبيب الراحل

كيف تفعلها بنا عن سابق إصرار وتصميم؟!

منذ شهور نخاطبك فلا ترد. كنت مشغولاً بهاجس الرحيل. ما كان رحيلك سهلاً، ولا خبطة إليوتيةً مفاجئة. كان عملية ترحال انهمكت في إعدادها نساء القبيلة: ضفرن الجدائل وهيأن السدر والأكفان الملونة وبكين لك ومعك، وفدّين «الطبيب المداويَ». وكان الرجال من حولك منخورين كأعجاز نخلٍ لا حول لها ولا طول.

كنت ترحل وترحل في كل ثانية وتوغل في الأبعاد القصيّة. كأنك تشتهي أن تكمل لغز نزار قباني الذي بدأت النساء يغزلن خيوطه منذ ذلك الصباح الربيعي الذي امتزج فيه حق بباطل وباطل بحق فما يدري ما الذي رُفع وما الذي وُضع.

ولدت ..
في الواحد والعشرينِ من آذار.
في ذلك اليوم المزاجيِ الذي
تراهق الأرضَ به
وتحبل الأشجار

ولد اللغز المتوهج وشرّق وغرّب بكل المعاني.

وكان مع كل نبرةِ قصيدة يفاجئ ويدهش ويثير ويصادق ويصادم ويكشف من أسرار الوجود طيَةً لتتكّشف له طيات. وكل شيء كان يتبدل ويتوالد دونٍ إنذار كأنها لعبة مباغتة بين اللغز والكون المضروب من حوله، ماعدا رايةً واحدة استمرت مرفوعة مرفرفة على المدى، ومن خلال لونيها الصارخين:لون الجمال الأخضر ولون الكبرياء القاني، كان يحاول القاصي والداني أن يتابع تموجات لغز نزار قباني.

منذ ماتت أمي الحبيبة يا نزار قبل سنين تحجر الدمع في المآقي وخذلتني نعمة البكاء.. وحين رأيت من بعيد نعشك يموج فوق السواعد العاشقة الوامقة المتمسحة بكل ذرة من جسد اللغز، طفر الدمع من العينين المتحجرتين، وأدركتُ مرة ثانية أنه لا شيء يعيد للقلب الندَى سوى نداء الشاعر، ومثلي آلاف وآلاف وآلاف من المحبين على امتداد هذه الأرض العربية التي اشتهت كل روضة فيها أن تنغرس فيها وتخاطَ إليها كما لو أنك تعود إلى بطن أمك لعل الولادة الأخرى تأتي:

ولم أزل من ألف وألف عام
في غرفة الولادة
منتظراً ولادتي الأخرى على يديك

يا نزار

كلّ بكاك على طريقته، كل دمعة ذُرفت كانت تَروي ورقةً أخرى من أوراق اللغز المزهر.. بكاك الرجال والنساء والشيب والشبان والفتيات الناضرات،

وأهل الحواضر وأهل البوادي، وكثيرون ممن كان حزنهم عليك مفاجأة للذين لم يدركوا أي لغز متوهج ينطوي عليه «قلب الشاعر».

ليتك تطل من عليائك لتشهد بأم عينيك .. مثلما أنت حتماً تحسّ .. أي حب زرعت في دمائهن ودمائهم، على اختلاف المشارب والمنازع.. الجسدُ خرقة معرّية[14] تخاط إلى الأرض وفوقها تزهر أبداً شجرة اللغز:

أنا نزار قباني
البدوي .. والحضاري
واليميني .. والماركسي
والجنسي .. والعذري
والأصولي .. والانقلابي
والعربي .. واللا عربي

الراية القطرية عدد 5877 الأربعاء 3 / يونيو. حزيران / 1998

ب . نسمة وفاء في أربعينية شاعر الوفاء

هذا التفجّع الذي يلف الوطن العربي لفقدان شاعر العرب المعاصرين نزار قباني.

وهذا التفهم – الذي واكب فقدانه وأعقبه – لعظمة الدور الذي اضطلع به شاعر العرب والعروبة، على امتداد نصف قرن ويزيد، في مراهنة لا تهادن ولا تراوغ، على الانتماء العربي الصافي، والوعي الفردي والجماعي، والكرامة الذاتية، واليقظة ضد الخمول والانحلال والتهاون، والتسوية في هذه المواقف بين الرجال والنساء، والشيب والشبان، والريف والمدينة، والغني والفقير، والمقيم والمهاجر...

وهذا التأكيد الشامل الذي لا يقل عن الإجماع إلا بدرجة أو درجتين، على أن

---

14 . جسدي خرقةٌ تخاط إلى الأرض فيا خائط العوالم خِطني «أبو العلاء المعري»

الجماليات والرؤى والإبداعات، والتألق في العبارة، والتوهج في اللغة والمباغتة في الفكرة الطازجة، والدهشة المثيرة، وكل تلك المتع الفنية التي كان وسيظل شعر نزار يزرعها في مسام الجلد وثنايا الروح، يصعب أن تجتمع ثانية في كل واحد بعده، وإن الزمان لا يجود بمثلها إلا في الحالات غير العادية، حين يولد في القبيلة الشاعر العظيم.

يا نزار

كل هذا التفجع والأسى والوفاء، إنما يدل على وعي الأجيال التي أنت دائماً لسانها الناطق وقلبها الخافق .. ولعلك تعلم أكثر من غيرك أن أمة العرب كانت وستبقى أمة شعر ذات حساسية جماعية فائقة يندر أن يكون لها بين الأمم نظير.

عشية الأربعين، نستمطر لك شآبيب الرحمة، ونطمئنك إلى أن الذي صنعته طوال نصف قرن من إشعاع الحروف ورسم الكلمات هو الإكسير الذي يتجاوز الفناء ويضمن للحب البقاء.

الراية القطرية 10 / يونيو. حزيران / 1998

ج ـ إلى نزار قباني .. ليتني أستطيع ..!

بقلم : دة. كلثم جبر

ليتني أستطيع أن اكتب عنك..

ليتني أستطيع ..

أيها الراحل إلى ضمير الغيب دون الرحيل من وجدان العاشقين.. يوم حملت صليب الهوى ورفضت الولوج إلى المدن التي يشنق فيها الحب والحرية ..

رسمت بالكلمات أزهى الصور وأجمل اللوحات فكان الشعر هو الرئة التي تنفست منها ولم تستطع الهرب منه..

كان أمامك ووراءك.. في ردائك وخلاياك..

أغضبت الكثيرين وأرضيت الكثيرين لأن العشق هو الهاجس الذي رفضت إلا أن يتحرر من قيود التقاليد وسجون الأفكار البليدة.

حملت الأمطار إلى المدن التي فارقتها الأمطار.. ونثرت العطور في الأماكن التي لم تعرف الروائح الزكية. وحولت الجدائل إلى بيادر قمح والجداول إلى أنهار عشق، والعيون إلى عصافير تهرب من أقفاصها الذهبية..

زرعت الفيروز في الشطآن التي حرمت من الربيع الأخضر، فأعطيت الحب مفهوماً جديداً يرتبط بحرية الإنسان.. وهي قضيتك الأولى التي نذرت نفسك للدفاع عنها، منذ استلمت شهادة المحاماة من كلية الحقوق.

من زبد الموج ومن أعشاب البحر ومن أوراق الدوالي، وفوق شطآن البحار.. زرعت رايات الحرية وخرجت بالحب من عتمة القهر والفجيعة إلى أضواء الشموس وأنوار الأقمار جلياً وواضحاً وبريئاً، ومتجرداً من الخوف والضياع في غابات الجهل ومتاهات المجهول، وتحولت الكتابة على يديك إلى عمل انقلابي رفضه كثيرون وأيده كثيرون.. والشعر إلى قنديل أخضر على ضوئه يتبدد الظلام ويسهر العاشقون.

ليتني أستطيع أن أكتب عنك..

ليتني أستطيع..

أيها الراحل الذي لم يرحل، والصوت الذي لم يصمت، والراية التي ستظل علامة فارقة في تاريخ شعرنا العربي الجميل.

الراية القطرية 2 /مايو- أيار/1999

القسم الأول

5 - ملحق

أود تذكير القارئ مرة أخرى أن الدراسة الحالية أريد لها أن تشمل لقطات حية موظفة للتذكير بمناسبات تسهم في فهم نزار الإنسان وجوانب من حياته الحافلة، وما أكثرها وأروعها عمقاً وصراحة.

وقبيل إرسال الكتاب الحالي إلى المطبعة، صادفتني جلسة في الدوحة مع الصديق البروفسور إبراهيم عويس، الأستاذ السابق في جامعة جورج تاون الأمريكية ومؤلف كتاب «حكاية ثقافتين A Tale of Two Cultures»، وحين علمَ أنني على وشك إصدار كتاب عن نزار اقترح أن يدلي بدوره حول لقاء مع نزار، وبما أنني كنت أعرف أن دراستي لنزار لم تتسع للتعريج الكافي على تجربة نزار مع أمريكا «التي أفردَ لها باباً من شعره» رأيت من المناسب الاستفادة من تجربة الدكتور عويس العابرة وإلحاقها بالباب المتعلق بالدوحة مع الاعتراف أن إطلالة نزار مع أمريكا تحتاج إلى دراسة خاصة على الأقل من خلال معلقته المثيرة «من أنا في أمريكا؟» ، من ديوان«خمسون عاماً في مديح النساء»، ص 167-180 .
وفيما يلي نص الرسالة:

نزار قباني الصديق الإنسان

بقلم إبراهيم محمد عويس، أستاذ سابق بجامعة جورج تاون

قابلت نزار قباني في واشنطن حينما جاء لزيارة شقيقه صباح الذي كُلف بإعادة فتح سفارة سوريا في أمريكا بعد انتهاء حرب أكتوبر 1973 . ومنذ ذلك الوقت نشأت بيننا صداقة قوية أعتزّ بها وأفخر بها إذ كنا على اتصال دائم أينما كنا، على الأقل مرة كل شهر إما هاتفياً أو بالرسائل – هذا ناهيك عن مقابلاتنا في لندن. وفي مسقط «عُمان» شاءت الأقدار أن يصعد إلى الطائرة التي كنت فيها قادماً من لندن والتي هبطت في دبي في طريقنا إلى مسقط وكان جالساً بجواري وذكر لي أنه كان في زيارة لابنه في دبي وكان متوجهاً لسلطنة عمان لإحياء ليلة شعرية ..

كان المكان مكتظاً بالناس ووضعت الميكروفونات في الشوارع المحيطة بها، إذ كانت له شعبية وجمهور يعشق الاستماع إليه. وأثرت في نفسي شفافيّة حسّه المرهف وعشقه للجمال في الإنسان وفي الزهرة التي يراها وفي السحاب المتقطع الذي يعلوه القمر بظهوره في أشكال عديدة ..

وكنت دائماً في تلهف للاستماع إليه عارضاً بعض ما يحدث حولنا في العالم ومعبراً وناطقاً لأحداث هزت كيانه، فمثلاً بعد الانتفاضة الفلسطينية الأولى أرسل إليّ قصيدته الخالدة «أطفال الحجارة»، بخط يده قبل أن تُنشر ..

نزار عاش في قلبي وذاكرتي حتى بعد أن انطفأت شمعة حياته.[15]

5 نوفمبر 2011القسم الثاني

---

15 . يرجى أن تذكرنا هذه الشهادة المقحمة عن نزار بما قيل عن المتنبي من أنه «ملأ الدنيا وشغل الناس، والحق يقال أن كبرياء نزار تجاوزت القارات عن وعي وممارسة، كما تجاوزت فنون القول إبداعاً وتصميماً، وتبقى الصراحة مع الكبرياء والإبداع هي العامل المشترك بين تراث العظيمين الملهَمين.

القسم الثاني

نزار المبدع

- لعبة الإغواء / هاجس البقاء
- الموسيقا الغنائية
- قصائد نزار المغناة
- المفاتيح الدلالية
- ماذا أعطى نزار للشعر العربي والوطن العربي؟
- نزار أمير العربية وعاشقها

إبـداع مبكر، إبـداع غزيـر، إبـداع فائق

رؤية واضحة ، جرأة كاسحة ، ذهن وقاد

لـغـة سـاحـرة، مـوسـيـقـى بـاهـرة

وسامة لامعة «حتى في الـوداع الأخيـر»

لعبة الإغواء / هاجس البقاء

«محاولة لتلمس جوانب إبداع نزار»

1 ـ مدخل

في هذا العصر المتقلب المتغيّر الذي تتسابق فيه مثل هُجن الخليج الأفكار والأزياء والبدع والاختراعات، وتتفجّر التكنولوجيا مثل كتلة نارية تلتهم ما عداها، كيف استطاع شاعر شاب أن ينشئ مملكة للغزل ثم أن يتربع على عرشها مستريحاً منذ منتصف أربعينات القرن العشرين حتى يوم الناس هذا وأن يحمي ولايته المعمرة وسط موجات الانقلابات والاضطرابات؟

في هذا العصر الذي يشهد يومياً تراجع الفن المسمّى غزلاً إلى مرتبة متأخرة جداً في سلسلة الاهتمامات الفنية لدى الشباب والكهول، حتى إنه في بلد مثل الولايات المتحدة وخلال فترة الستينات نشرت إحدى الكاتبات مقالاً أنتج في المنابر الإعلامية من شرق أمريكا إلى غربها، تتحسّر فيه الكاتبة على أيام شعر الحب وتتعاه، وتأسى للفتاة الأمريكية لأنها ما عادت تسمع من خليلها أية كلمة غزل حلوة تدغدغ مسامعها وتوقظ مشاعرها الأنثوية.. وفي هذه الفترة «الستينات» بلغ نزار أوج تألقه في المنطقة العربية، واستطاع أن ينشئ دار نشر في بيروت مخصصة لأعماله فقط، وبذلك استقلت مملكته وأعلنت الاكتفاء الذاتي والاستغناء عن المعونات الخارجية، بينما كانت الدول الأدبية الأخرى تئنُّ وتستعطي.

في هذا العصر الذي أصبح فيه شعراء الغزل بلا جمهور، وبالكاد يجدون حتى في المنطقة العربية أذناً أنثوية مهيّأة لتلقي كلامهم الحلو، وقنعوا مكرهين أن يكونوا من فئة شعراء الفن للفن، وخضعوا غير مختارين لمقولة «كنط» بأن الجمال الصحيح هو الجمال الخالي من المنفعة.. في هذا العصر كان نزار يصول ويجول ولا يشكو القلة ويمتد سلطانه من الشرق العربي إلى

المغرب ومن الشمال إلى شبه الجزيرة العربية التي استعصت عليه في بادئ الأمر... ولكنها ما لبثت أن فتحت له المنابر والقصور والصدور

في هذا العصر وفي عقوده الأخيرة، عصر الدويلات المتتابعة والكثبان المتحركة في دنيا الشعر، يطل نزار قباني كل يوم على جمهوره إطلالة جديدة، ويغيّر موقع «غمازتيه» اللتين تمعنان في الحفر مع تقدُّم شيخوخته العذبة، وينثر غمزة هنا «لا غمازة» وغمزة هناك، ويبهر ويعجب، وأهم من ذلك يتجاوز أعداءه النقاد ويتحداهم، ومن فوق ظهورهم يخاطب الجماهير، تماماً مثلما يفعل محمود درويش «ولكن من موقع آخر له ما يسوّغه وليس فيه ما يثير العجب».. في حين تشكو دور النشر من أن دواوين الشعر لم تعد سلعة للبيع، وخرجت من اقتصاد السوق الأدبي.

2 ـ كيف؟ وكيف؟

ها قد دالت دولة الغزل عالمياً، وعربياً إلى حد بعيد، فكيف استطاع نزار أن يحتفظ بعرشه منذ منتصف أربعينات القرن العشرين، بل قبل ذلك بقليل، يوم بدأ رحلته الإبداعية حاملاً لواء الغزل لا خجلاً ولا وجلاً بل معلناً بالملفوظ أو الملحوظ أحقيته بالخلافة الشعرية لعمر بنَ أبي ربيعةَ بعد حوالي أربعة عشر قرناً لم تقُمْ فيها قائمة لمطالبٍ بالعرش؟ وكيف تولاها بقدرة قادر وجعلها خلافة معمّرة؟

الأفضل أن نبدأ من الأخير إلى الأول، فتمشياً مع الحداثة والمعاصرة ليس الماضي إلا ممتلكاً من ممتلكات الحاضر يُفهم ويصاغ وينتقى من خلال نظارة العصر. وإذا كان تاريخ ما قبل شهر يمكن أن يعدّ من الحاضر فلنذكر أن نزاراً «والله نزار أحلى دون تنوين النصب» نشر في 1997/1/17 في «**الحياة**» قصيدة حب فريدة تمدُّ جسراً معلقاً من الحاضر إلى الماضي:

«عاشق بدوي في عصر الحداثة»

وفي هذه القصيدة يمتد قوس الجسر المعلق من أيام البداوة الجاهلية إلى أحدث مردّدات العصر في الغرب، وتُصَفُّ المفردات الدالة على الماضي صفّاً سيميائياً مقابل المفردات الدالة على الحاضر الحداثي جداً ـ Ultra

modern لتشكل القصيدة، بلغة النقد الحديث، مجالاً مغناطيسياً مراوغاً تتداخل فيه تيارات «تكامل» دلالي مع « تقابل » ومع « تشبع » أحياناً كما في الأسطر الأخيرة من القصيدة بوجه خاص، وربما أيضاً في المقطع الأول الذي ينقسم انقساماً حاداً بين الماضي والحاضر، تتوّجه دلالياً علامة «النهد» التي هي علامة العلامات الفارقة عند نزار منذ أيامه الأولى، وعند جميع الأقوام والشعوب من أيام الديناصورات الأولى إلى أيام المساكين رواد الفضاء الذين يتاح لهم بين حين وآخر أن يرافقهم نهد.

«سنعود إلى النهد النزاري في طيات رجعتنا إلى الوراء ولا ينبغي أن ننسى أننا بدأنا من الحاضر المستمر Present Continuous أو الذي انتهى ولم يكدْ Vien de لنعود إلى الماضي السحيق Past Perfect أو الماضي الذي انقضى Passé Simple».

بعد هذا التتويج المكلل بالغار والأرجوان يحدث التقابل الدلالي للذعات الماضي والحاضر.

وبين لذعة العشق.... ولذعة «الفودكا»
وبين حرب البسوس.... وحرب «الديسكو»
وبين أنوثة الرجال... ورجولة النساء..
وبين حليب الناقة.... ورغوة «الكابوتشينو»..
وبين فحولة عنترة بن شداد.... ورخاوة مايكل جاكسون
وبين هدوء البادية.... وضجيج المترو
وبين «عيون المها بين الرصافة والجسر».... وإشارات المرور في لندن!..

والله إنه ليس تلاعباً بالألفاظ كما قد يخيّل لبعضهم:
«هذا كلام له خبيء... معناه ليست لنا عقول»
وفي المقطع الثاني تكامل دلالي غزلي من أعماق الماضي يتوّجه امرؤ القيس «الملك الضّليل» ويغيب عنه - وياللعجب - عمر بن أبي ربيعة «**خليفة**»[16]، **الباطل**

16 . أيُّ باطلٍ رُفع وأيُّ حقٍّ وُضع

والضليل الثاني».. هل هي مقصودة يا نزار؟ وكيف لا يُذكر عمر في سلسلة امرئ القيس وجميل بثينة وعروة بن الورد وسُحيم، والقطا والقهوة المرّة والبحر الطويل؟

هل نستعين بفرويد لنقول إن هذه «النسْيَة» من صنع العقل الباطن؟!

وبعد ذلك تأخذ المقاطع المتوالية شكلَ أو «لا شكل» تقاطع سينمائي ومونتاج ودوبلاج، وهيهات يحاول الشاعر إبقاء الذرات المتحركة لكل مجال دلالي على طرفه الخاص من القوس. إن الذرّات تتداخل وتتفاعل وتتصادم كأن القصيدة فطيرة مسخنة بالمايكرو- ويف «بدلالة المقطع الرابع عشر- الأخير».

أيتها الشمالية التي تتحمص على شمس بداواتي
اخرجي من تحت الثلج.. وادخلي في حرائق دمي
إنني أحبك حتى آخر رجولتي..
وآخر أنوثتك..

* * *

آه.. يا ليت نزاراً وقف هنا ولم يكمل بضعة الأسطر الأخيرة فهي مجرد «تشبّع» دلالي، والقفلة الحقيقية الباتّة هي هذا النداء الأخير الذي يَلُمُّ مشاهد القصيدة وتقاطعاتها على شكل شحنة كهرومغناطيسية صاعقة لا تحتاج إلى فاء السببية أو لام التعليل.

والخلاصة أن هذه القصيدة واحدة بل مجرد مثال من سلسلة طويلة من المفاجآت المدهشة أو المصادِمة، يطلع بها نزار من حين لآخر، ومن ديوان لديوان متأرجحاً بين الحب والفروسية والهم العام، وبين الماضي والحاضر والأصالة والمعاصرة، وبين الوزن وشبه الوزن واللا وزن، وبين القافية واللا قافية، وبين الأنا الشخصي المضخم والأنا الجماعي الممتد في الجغرافيا والتاريخ، وبين الشرق والغرب، وبين الجزالة والرقة، وبين الفصيح والمعرّب والدخيل والأعجمي. وفي هذه اللعبة المستمرة يستغني نزار عن وساطة النقد، ويمدّ لسانه للنقاد استهزاء، ويخاطب الجماهير «نعم الجماهير كما أثبت دائماً.. شئنا أم أبينا» من وراء ظهور كل الفذلكات النقدية والمقامات الأيديولوجية.

3 ـ قهقرى إلى البدايات

بدايةً، لولا الموهبة الثرّة والانقطاع الكامل في محراب الفن لما كان لكل هذه النقلات والمفاجآت والقفزات والتشكيلات والتحديات أن تفعل فعلها وتصمد لعواصف المنافسة من الجيل الجديد ومن أساليب القول المتدفقة، ولمشكلات المواجهة مع الأيديولوجيات والأخلاقيات على طرفي العصا التأديبية من جناحَيّ اليمين «الماضوي» واليسار «المستقبلي». ومهما كان الرأي في حصيلة تجربة نزار، إيجاباً أو سلباً أو بين بين. وهذا حق للجميع. فإنه مما لا ينكر ولا يمارى فيه أن شعر نزار استمر يجذب القراء ومدمني المهرجانات والأماسي الشعرية على امتداد الأرض العربية، وذلك على الرغم من القليل الإيجابي الذي كتب عنه نقداً أو تعليقاً في الدوريات الأدبية في إطلالاته المبكرة، أو ما قيل ضده في الأوساط المحافظة أو المتسلطة أو المتسلطنة.

وإنه لمن فضول القول تفسيراً لذلك أن نؤكد أن الموهبة تحفر مجراها وأن المثابرة لا بد أن تؤتي أكلها، ومنذا يزعم أن نزاراً لم ينطق عن موهبة زاخرة، أو أنه لم يعش الشعر على نحو ما طلب أندريه بريتون، أو أنه لم يثابر وفقاً لنصائح لاميتَيّ العجم والعرب؟ شأنه في ذلك شأن القليلين جداً من أترابه الموهوبين ومجايليه، وفي مقدمتهم طبعاً عبد الوهاب البياتي ومحمود درويش وفدوى طوقان ونازك الملائكة، وبدر شاكر السياب وصلاح عبد الصبور... على أنه من الضروري أن نلفت النظر إلى تصاعد الاهتمام بشعره وتطورات حياته في أواخر القرن الماضي، ولاسيما من خلال المواقع الإلكترونية التي لم تترك للقلم والورق إلا اليسير.

ومما ميّز نزاراً منذ البدء أنه سار على القاعدة الذهبية المعروفة: كلٌّ ميسّر لما خُلق له.. وأحياناً خالفها فوقع في الهوّة ولكنه دائماً تخلص بمهارة. ومنذ البدء كان متعلقاً بالحب بالنهد بالمرأة، بالمغامرة الغرامية، بالجنس، بوصف الجمال الحسّي، بسبر أغوار الأنوثة، وهذه هي الأمور التي طلع على الناس بها عندما انتصف القرن العشرون أي بمواكبة حركة التحديث الشامل التي عصفت بمدن مصر والشرق العربي بوجه خاص.. وقد يقول قائل إن هذه الأوصاف والموضوعات والمواقف لفتت النظر إليه؛ لأنها كانت جديدة ولاسيما

من ناحية جرأة الطروح وجماليتها.. وهذا صحيح على الأقل فيما يتعلق بمنطوق الشعر العربي المحافظ في سوريا آنذاك، ولكنها لم تكن جديدة تماماً عن تيار شعر الحب العربي بل عن مجمل الكتابات النثرية العربية عن الحب والمرأة.. إلا أن الجديد هو طريقة العرض المدهشة والمثيرة والرفيعة والمرصّعة بأجمل مفردات الحب في الشعر العربي والرافلة بماء الحرير والمخمل وماء الورد والزهر من أجواء دمشق وغوطتها وحضارة مجتمعها وتفتّحها آنذاك على الحياة الحديثة والآمال والأحلام التي كانت تلوح في الأفق، كانت إطلالة نزار على عالم متذوقي الشعر ماهرة باهرة.. ولقد بهر الجيل الجديد كما بهر جيل الكبار إلى درجة أنه يمكن للمرء أن يزعم أنه مع مرور الخمسينات لم يعد بمقدور أي شاب أن يتغزل بفتاة دون أن يستعين بأشعار نزار.. ولقد صارت أشعار نزار الزاد الكبير للتقارب بين الجنسين، كل على طريقته.. وهكذا رسالة تكفي لتفسير سيرورة شعره من المحيط إلى الخليج.

وهكذا منذ عام 1944 بدأ القراء الشباب يتناهبون دواوينه وأولها «**قالت لي السمراء**» على الرغم من الحملات التي أثيرت في وجهه أيام ذاك ولما تنقطع. وتبعه «**طفولة نهد**» - 1948، ثم«**سامبا**» - 1949، ثم «**أنت لي**» - 1950.

ثمّ توالت الهدايا، وفي كل إصدار مفاجآت وخطوة جديدة في ظلّ المواقف الحادّة من التجربة الإنسانية أولاً، ثم من خلال تقنيات المغامرة الفنية ثانياً. واستمرت هذه المرحلة حتى فترة الهزيمة العربية الكبرى عام 1967. وقد قيل الكثير بشأن تجربة الشاعر في هذه المرحلة الأولى من شعره ثناء أو ثلباً أو اعتذاراً. وفي رأيي ومن خلال نظرة لاحقة وهادئة أن نزاراً كان حائراً في هذه الفترة بين مغريات الجمال الجسدي المظهري وبين المعاني الإنسانية لتجربة الرجل والمرأة..

وكان قرّاؤه يهللون لأوصافه الجريئة، بل يطالبونه بالمزيد، وهو الذي لم يقصّر في إبراز مفاتن الأنثى والكشف عن محاسن تضاريس الجسد النسائي المترف نهده وطياته وإغوائه، ولكن لم يحاول أن يصوغ من ذلك الكشف فكرة عامة أو تفسيراً أو فلسفة نظرية أو نظرة اجتماعية على الأقل لمفهوم الأنوثة التي تجذبنا دائماً - على حد قول غوته - ولعله أخذ من هذه الناحية،

أي إن أكثر المطاعن التي وُجِّهت له افتقدت في شعره الحسّ الإنساني للمرأة وهي قسيمة الرجل وشريكته وأم أولاده وأمه أيضاً. إذا أردنا أن ننظر إلى الموضوع من زاوية الرجل وهي الزاوية الوحيدة التي كانت حاضرة في ساحة وعي التفكير حتى أواخر الستينات تقريباً. وكان لسان حال الناس، حتى من بين محبيه، يردد أنه نعم، المرأة هي بهجة الحياة والمجتمع والطبيعة مثلما كانت جدتنا حواء بهجة الجنة البكر وغوايتها أيضاً، ولكن المرأة لها دور وكيان قائم بذاته، وهي إنسان لا يستقي وجوده من مجرد كونه متعة ورحمة وخدمة للرجل.. وهنا للإنصاف يمكن التأكيد أن الدواوين الأولى لم تنكر إنسانية المرأة ولكن أضواءها البارزة ونبراتها الصارخة Overtones كانت تدفع القارئ بسرعة باتجاه المرأة - المتعة أو المرأة - المخلوق الجميل الناعم.. ويحسن ألا يغرّنا إطلاقاً تعاطف نزار مع بعض جوانب معاناة المرأة من الظلم والاضطهاد، ولاسيما تعاطفه مع البغيّ أحياناً أو مع المرأة التي تقع فريسة خذلان الرجل «حبلى»، فهذه وقفة إنسانية لا يمكن أن يتجرد منها الشاعر، ولكنها لا تشكل بذرة نظرة خاصة في مفهوم المرأة.

ثم إن تشديده على موضوعة الجنس في مجتمع راسف بالمحافظة واللياقة الأخلاقية الشكلية جعل اللافتة الأولى لصورته العامة مرتبطة بالإباحية.

أما من ناحية الشاعر نفسه فالمسألة مختلفة. فقد كان - فيما يبدو - واضح الهدف منذ البدء واعياً لموهبته وطبيعتها، ومدركاً لطبيعة الاستجابة التي يراهن عليها. وإلا فكيف يمكن تفسير المقطع التالي «الاستفزازي حينذاك» من ديوان «قالت لي السمراء»، وأي شاعر كان يجرؤ على مثل هذا الوضوح عام 1944 ؟

هو الجنس أحمل في جوهري هيولاه
من شاطئ المبتدا
بتركيب جسميَ جوع يحنّ لآخر
جوع يمدّ اليدا

وفيما بعد حاول الانطلاق من هذا الموقف لتفسيره على الأقل أو «أنسنته»

أو ربطه بالفكر الاجتماعي العام، ولكنه انطلق بغير حماسة، ولم يستطع أن يتوصل إلى فكرة متماسكة أو موقف مميّز تجاه ظاهرة الجنس التي هي محرك أساسي في حياة البشر، وسرّ تناسلهم وبقائهم، وهي بعدُ سيّدة اللذّة على المدى.

4 ـ انعطافة هامة إلى الأوضاع العامة ومرة أخرى كلٌ ميسّرٌ لما خلق له.

بعد هزيمة عام 1967 قرر نزار أن يخرج نسبياً عن مساره المفضل، وأن يسخّر موهبته لفضح التخاذل والهوان والظلم وسوء الأوضاع في الوطن العربي.. وهنا اندمج تماماً الأنا الخاص مع الأنا العام وتوالت قصائده اللاهبة في هجاء الأوضاع المتردّية، وكان عنيفاً وصارخاً وكاشفاً للأستار، وعمل على أن يكون واحداً من أبرز فرسان الساحة الشعرية القومية، وبذلك حقق معادلة الحب البدوي الذي ظلّ دائماً كامناً في دمائه: لا حب بلا فروسية ولا طعم لفروسية بلا حب، وهكذا لم يتخلّ في هذه المرحلة عن قصائد الحب.

وبالطبع هناك الكثير مما يمكن أن يقال في شعر الأحداث[17] القومية والوطنية والاجتماعية من ناحية ارتباطه بالحدث واتكائه على أهميته العامة والزمنية العابرة. والحقيقة أن نزاراً كان بوجه عام واعياً لهذا المزلق، فكانت المناسبة تحرّضه ولكنّ لجوءه إلى التعميم والترميز كان يبعده عن الارتباط النصّي بالحدث الذي هو مقتل قصيدة الأحداث أياً كانت.. وتظل مشكلة قصائد الأحداث لدى نزار وغيره هي ارتباطها أيضاً بمنطق المرحلة وعجزها في أغلب الحالات عن نبش المخبوء أو استشراف المجهول، وبذلك لا تصمد عادة إلا قصائد قليلة متميزة قادرة على الانتقال بتأثيرها من جيل إلى جيل.

ولنزار ـ رغم إسرافاته الكثيرة ـ جولات لا بأس بها في هذا المجال، ربما كان من أبرزها قصيدة «**بكائية لجمال عبد الناصر**». وبصرف النظر عن

---

17 . استعملت هذه الكلمة «الأحداث» بدلاً من المناسبات إرضاء لروح نزار الذي رفض مصطلح «مناسبة» بقوة، كما أشرنا إلى ذلك سابقاً.

اختلاف المواقف بشأن موضوع القصيدة فإنها تبدو قادرة على الخروج بتجربتها الفنية الداخلية من دائرة الخلافات، إذ تأخذ شكل قطعة فنية قائمة بذاتها.. فكأنها لم تكن بالضبط مجرد صدىً مباشر للمشاعر العامة في ذلك الحين، بل حاولت اختراق الظاهر وتلمّس ما يمكن أن يكونه الوجدان الجماعي المخبوء لدى الجماهير في ابتعاد كامل عن التقريرية والندب والحماسة الفجّة، وفي محاولة لتعمّق الذات الخاصة ونخل الذات الجماعية ووضع ضمير المتكلمين الذي التزمته القصيدة أمام مسؤولية تاريخية دقيقة. وفيها إلى ذلك كله نغمة صدق مؤثرة من ذلك النوع الذي يستعصي على التحليل، أي يدركه الحدْس ولا تحيط به الصفة، وربما كان لبساطة التعبير دون التخلي عن الكثافة الشعورية أثرٌ في إشعاع هذه القصيدة. وهذا ختام مقاطعها إضافة إلى المقطع الذي أوردناه سابقاً:

أبا خالد.. يا قصيدةَ شعر.. تقال فيخضرُّ منها المداد
إلى أينَ؟ يا فارسَ الحُلم تمضي
وما الشوطُ، حينَ يموتُ الجوادْ؟
إلى أينَ؟ .. كلُّ الأساطير ماتت
بموتكَ.. وانتحرتْ شهرزادْ
وراءَ الجنازة.. سارتْ قريشُ
فهذا هشامٌ.. وهذا زياد
وهذا يريقُ الدموعَ عليكْ
وخنجرهُ، تحتَ ثوب الحدادْ
وهذا يجاهدُ في نومه.. وفي الصحو
يبكي عليه الجهادْ..
وهذا يحاولُ بعدكَ مُلكاً.. وبعدك كلُّ الملوكِ رماد
وفودُ الخوارج.. جاءتْ جميعاً
لتنظمَ فيكَ.. ملاحمَ عشق.
فمن كفَّروكَ.. ومَنْ خوَّنوك ومَن صلبوكَ ببابِ دمشق

أُنادي عليكَ.. أبا خالد
وأعرفُ أنّي أنادي بوادٍ
وأعرفُ أنكَ لن تستجيبَ
وأنَّ الخوارقَ ليستْ تُعاد.[18]

وفي هذا الباب تتضارب الآراء وتكثر الفتاوى، وتخرج من مجال الفن إلى مجال البقاء والنضال، وما أعظمه من مجال، ولكن العجالة الحالية تؤثر أن تؤجل الكلام في هذا الموضوع إلى فرصة أخرى، وتتمثل مؤقتاً بسحبة محمد عبد الوهاب المعروفة:

ما أقصر العمر حتى
نضيعه في النضال

وما كان نزار ليقصر في أي من المضمارين.. الحب والنضال... وظلّ في أوج عمره حريصاً على الانخراط في الهم العام.

5 ـ مفاتيح وعلامات راسخة

إن نزاراً هو نزار، والشاعر يمكن أن يبدل عباءة بعباءة مجاراةً للعصر، أو تجاوباً مع تحريض داخلي أو خارجي، أو اقتناعاً بمستلزمات التجدّد الفني أو غير ذلك.. ولكن يصعب على الشاعر الأصيل أن يخرج من جلده أو يبدل إهابه حتى لو خيِّل له أن ذلك ممكن. وفي حالة نزار نجد نزوعاً دائماً إلى التجدد والتجاوب مع روح العصر ومع الأذواق المستجدة، ولكن أيضاً مع قضية الوطن والوجود القومي والانبعاث. وتدلّ نفثاته الشعرية المتحدِّية خلال العقدين الأخيرين من عمره، كما تدل تصريحاته، على أنه عقد العزم ـ وهذه المرة نهائياً ـ على أن يكون الهمّ العام دأبه وديدنه، واضعاً يده على المفتاح الأساسي

---

18 . انظر في الملحق حكايته المثيرة مع الرئيس عبد الناصر .

للوضع العربي ومشكلة المشكلات، وهو السلطان أو السياسة أو الحكم.

وعلى امتداد عمره الشعري الطويل «نصف قرن ويزيد» جرّب الشاعر مختلف أشكال التعبير وارتدى عباءات فنية متراوحة من العباءة المقصّبة الفاخرة الرصينة المستندة على خطيّ الوزن والقافية، إلى العباءة المزركشة بتفعيلات وقواف متقاربة أحياناً بنظام محدد وأحياناً أخرى «حسبما يجيء تكون»، كما جرّب العباءة الحريرية ذات التّصاوير والأشكال الزاهية، وكذلك العباءة «السادة» المعتمدة على امتداد لون واحد أو لونين والمزدهية بمتانة قماشتها مستغنية تماماً عن أية صور متعمدة أو تقنيات خارجية مسقطة، وربما كانت هذه العباءة «الغانية» ذات الطابع الذوقي العصري هي الاختيار الذي آل إليه نزار في مواكبة الهم العام والحب العصري، إذ تخلى تقريباً عن التفعيلات والقوافي وكذلك الصور الخارجية لينفذ إلى ما وراءها من جماليات ولطائف توصلاً إلى «الزفير الأسمى» الذي نادى به بول كلوديل من خلال بيت الشعر المفتوح المتمرد على كل قيد:

يا بنيّ: عندما كنتُ شاعراً بين البشر
ابتكرتُ بيتاً لا وزن له ولا قافية
واستوعبت في طيات قلبي
وظيفةً مزدوجة متبادلة
استنشق بها الحياة لأردّها
كلمةً مسموعة
في زفيرٍ أسمى

وفيما يلي تلمّسٌ لبعض المفاتيح والعلامات المشتركة في مراحل شعر نزار المتعاقبة، من خلال انطباعات أبعد ما تكون عن الدراسة الفنية المنظمة، فتلك لها مجال آخر غير هذا المجال.

6- الموسيقا الغنائية

إن قارئ نزار الإجمالي يحسُّ بانجذاب مستمر تجاه إنتاجه الشعري بصرف النظر عن الموضوع أو الشكل أو مرحلة التطور.. وهذا طبعاً من أسباب سيرورة شعره في مختلف أوساط القراء ومستويات ثقافتهم. وبما أن هذا الجاذب عنصر مشترك في كل أشكال شعره فلا بد أن يكون هو الموسيقا بطبقاتها واختياراتها المطلقة. وقد خطر للقارئ الحالي «أي كاتب هذه السطور» أن يسميها في بعض مقابلاته التلفازية: الموسيقا الموسيقية، أي أن يصفها بالموسيقية لأنها ليست تابعة لأي اعتبار آخر. وهي بعدُ ليست موسيقا خالصة أو صافية على طريقة فيرلين والرمزيين الذين أكدوا أن الشعر هو الموسيقا ولا شيء إلا الموسيقا.

وتتألف موسيقا نزار عامة من النغم الداخلي أو الخارجي، وكذلك من اللفظة الإيقاعية المستندة إلى الكلمة الصائبة le mot just على الأسماع والقلوب.. وفي كل ما قاله من شعر غرامي أو وصفي أو سياسي توافر ذلك النغم المدغدغ للأذن ومهّد الطريق لوضع السامع أو القارئ في حالة تهيؤ لتقبّل «رسالة» القصيدة.. إن شعره سواء أكان موزوناً مقفى أم مقطعياً قائماً على التفعيلة، أم زفيراً غير خاضع لنظام إيقاعي محدد، يختال دائماً ومعه رنين إيقاع جميل أو أصداء أنغام خفية خارجة عن كل قاعدة شكلية.. ويخيّل إلى متابع شعره أن خط تطوره كان انتقالاً من الإيقاع المنتظم إلى النغم الخفي الحر، وفي جميع الحالات استطاع الفتى الدمشقي «ذواقة العود والكمنجة» أن يوفر مناخ الطرب أو الارتياح السماعي لأشعاره على اختلاف أبنيتها وأغراضها. ويمكن العودة إلى المقطع المثبت سابقاً من «بكائية جمال عبد الناصر»، وكذلك مقطع الشعر الحر من «عاشق بدوي في عصر الحداثة» كمثالين للتأكد من مستويي الإيقاع الظاهر والخفي.

ومع الإيقاع هناك دائماً اللفظة المنسجمة مع ذاتها بالدرجة الأولى ومع وظيفتها بالدرجة الثانية.

وهنا أيضاً كانت الموهبة الطبيعية هي التي تختار من كلمات اللغة العربية

أحلاها وأقدرها على الهمس والإيحاء.. وهنا أيضاً كان للبيئة الشامية بل لتربية الأذن الشامية أثرها في لطافة الكلام الشعري ونعومته وتنغيمه.. ويتكئ شعر نزار كثيراً على المصطلح السائد في لهجة دمشق وأحياناً ينتقي من العربية ما هو أكثر وروداً في كلام أهل دمشق الذي يقترب كثيراً من الفصحى الملطفة في مستويات المثقفين والأدباء والطبقات الميسورة عموماً. وسواء عن تعمد أو انتقاء طبيعي هناك كلمات كثيرة تتردد عنده بذبذبة عالية لا تخفى فيها الأغراض الموسيقية إلى جانب الوظيفة الفنية والتعبيرية.. ويمكن لأية دراسة حاسوبية أن تتابع هذه الظواهر وتستنتج قوانينها الداخلية. وفيما يلي أنموذج واضح للإيقاع الموسيقي الذي لا يكتفي بمجرد تكرار القافية على النمط التقليدي الرتيب، وإنما يجعل الكلمات ترقص رقصاً مع تنوع القوافي والتكرار الذي يكاد يربط جوهر مقاصد النص وإيحاءاته بإيقاعات المفردات الجاهزة للغناء. وذلك كله في إطار إلقاءٍ مدهش صوتاً وحركةً وتجاوبات الوجه الصبوح

التقصير

منذ ثلاثينَ سَنَهْ
أحلُمُ بالتغييرْ
وأكتُبُ القصيدةَ الثورةَ.. والقصيدةَ الأزْمةَ..
والقصيدةَ الحريرْ...

* * *

منذُ ثلاثِينَ سَنَهْ
ألْعَبُ باللُّغات مثلما أَشاءْ
وأكتبُ التاريخَ بالشكل الذي أَشاءْ ..
وأجعلُ النقاطَ، والحروفَ، والأسماءَ، والأفعالَ،
تحت سُلْطَة النساءْ،
وأدَّعي بأنّني الأوّلُ في فَنِّ الهوى..
وأنّني الأخيرْ..

* * *

ولا أزالُ كلَّما سافرتُ في عينَيْكِ.. يا حبيبتي
أشعرُ بالتقصيرْ..
وكلّما حدَّقت في يَدَيْكِ يا حبيبتي
أشعرُ بالتقصيرْ..
وكلَّما حدَّقتُ في يَدَيْكِ يا حبيبتي
أشعرُ بالتقصيرْ..
وكلّما اقتربتُ من جمالك الوحشيِّ يا حبيبتي
أشعرُ بالتقصير
وكلَّما راجعتُ أعمالي التي كتبتُها..
قُبَيْلَ أن أراكِ يا حبيبتي..
أشعرُ بالتقصيرْ..
أشعرُ بالتقصيرْ..
أشعرُ بالتقصيرْ..

وفي مجال الكلام على الطاقة الموسيقية التي توافرت في شعر نزار يمكن القول إن أكبر امتحان موسيقي لأي شاعر هو إقبال عالم الغناء على تلحين أشعاره بحيث تصل إلى جمهور يتجاوز أضعاف ما يصل إلى القراء، كما تتجاوز الحدود والسدود والمسافات والطبقات الاجتماعية، ولاسيما في المجتمعات العربية التي تشكو من ارتفاع مستوى الأمية كما تشكو من انخفاض نسبة القراء. ثم إن هذه الظاهرة لم ينجُ منها أي بلد عربي إلا من رحم ربك وقليل ما هم.

وتبرهن القائمة التالية المتعلقة بالانتشار الغنائي لشعر نزار على أن نزاراً وفّى وكفّى في هذا المجال، ولعله تجاوز معظم الشعراء العرب بما فيهم أحمد شوقي في هذا المجال.

يضاف إلى كل ما تقدم أن نزار الموسيقي سجّل معظم أحداث الأمة العربية متجاوزاً في ذلك وقائع التاريخ الرسمي المزور، وكان لقضية فلسطين وقضايا الحرية الداخلية نصيبٌ كبيرٌ في قصائده الملحنة وغير الملحنة.

ومن الناحية الفنية الخالصة يمكن أن يسجل لنزار أنه أحيا التفعيلة بوصفها العنصر الأساسي في القصيدة بدلاً من البيت الشعري المفعم بالقيود الموسيقية والرصانة النغميّة، وبذلك حرر الشعر العربي من رصانة بيت الشعر إلى حرية التلاعب بالموسيقا المريحة للشاعر والمتلقي، بل أيضاً للمغني، وأكبر دليل على ذلك هو إقبال الشعراء المحدثين على تحرير القافية وتنويعها بعد أن كانت عبئاً على الشاعر والمتلقي.

ويرجى ألا يفهم من كل ذلك انه الوحيد في هذا المجال، وهناك شعراء عرب بذلوا جهوداً طيبة بهذا الصدد، إلا أن جهود نزار هي الأعمق قصداً والأوسع تأثيراً كما تشير القائمة التالية التي تشيد بجهوده الفائقة، وأغلب الظن أنها جهود متعمدة.

وفيما يلي شبه قائمة بقصائده التي تجاوزت عالم القراءة إلى عالم السمع، وهذه العبارة بالذات تذكرنا بتجليات إبداعه في الإلقاء.

قصائد نزار المغناة

على مدى نصف قرنٍ ظلّ المطربون الكبار يتسابقون للحصول على قصائد نزار.

وفيما يلي شبه قائمة طبقاً للترتيب التاريخي والأهمية ما أمكن:

- أم كلثوم: غنت له قصيدتين : «**أصبح عندي الآن بندقية**» ،«**رسالة عاجلة إليك**» من ألحان عبد الوهاب .
- عبد الحليم: غنى قصيدتين أيضاً هما : «**رسالة من تحت الماء**» و «**قارئة الفنجان**» من ألحان محمد الموجي.
- نجاة:غنت له «**أيظن**» ، «**إني ألف أهواه**» ، «**ماذا أقول له**» ، «**كم أهواك**» ، «**أسألك الرحيلا**» ، «**سيد الكلمات**» .. والقصائد السبع لحنها عبد الوهاب .
- فايزة أحمد: قصيدة واحدة هي : «**رسالة من امرأة** » من ألحان محمد سلطان .
- فيروز : غنت له قصيدتان « **وشاية** » ، «**لا تسألوني ما اسمه حبيبي** » من ألحان عاصي رحباني .

- ماجدة الرومي: خمس قصائد هي : «**بيروت يا ست الدنيا**» ، «**مع الجريدة**» وهما من ألحان د. جمال سلامه .. ثم «**كلمات**» من ألحان الملحن اللبناني إحسان المنذر ، ثم قصيدتي «**طوق الياسمين**» و «**تلومني الدنيا**» من ألحان كاظم الساهر، وشاركت الغناء معه قصيدة «**القدس**».
- كاظم الساهر وصل عدد القصائد التي غناهاإلى ثماني عشرة قصيدة أهمها : «**إني خيّرتك فاختاري**»، «**زيديني عشقاً**» ، «**علمني حبك**» ، «**مدرسة الحب**» ، «**صباحك سكر**» ، «**قولي أحبك**» ،«**كل عام وأنت حبيبتي**» ، «**أشهد أن لا امرأة**» ، «**طوق الياسمين**» ، «**أحبك جداً**» ، الخ .. وكلها من ألحان كاظم الساهر .
- أصالة : غنت له قصيدتين: « **اغضب** » التي لحنها حلمي بكر ، و«**القصيدة الدمشقية**».
- إلهام المدفعي: قصيدة «**بغداد**» وهي من ألحانه
- خالد الشيخ : «**نهر الأحزان**» وهي من تلحينه.
- طلال المداح: غنى قصيدتين:«**متى ستعرف كم أهواك**» و «**جاءت تمشي باستحياء**» وهما من تلحينه
- عاصي الحلاني غنى ولحن قصيدة «**القرار**» .
- نجيب السراج : غنى له قصيدة «**العيون الفيروزية**» ، وهي من ألحانه.
- زكية حمدان : غنت له قصيدة «**لماذا تخليت عني**»
- وأخيراً وليس آخراً لدينا مسرحية«**جمهورية جنونستان ... لبنان سابقاً**» التي ظهرت عام 1977

المفاتيح الدلالية

ومن الدارة الموسيقية يمكن أن ننتقل إلى المفاتيح الدلالية أو العلامات أو الألفاظ الدالة. وهنا أيضاً يحتاج المرء إلى دراسة إحصائية، ولكن القارئ يستطيع بكل سهولة أن يتذكر بعض هذه المفاتيح.

النهد: إن الكلمة المفتاحية المطلقة التي هي «**افتح يا سمسم**» أمام كهف الإبداع الشعري عند نزار لا بد أن تكون النهد. إن النهد جاهز دائماً على

مقدمة لسانه الشعري وقد يثب أحياناً دون انتظار إذن ليحتل مكان الصدارة أو ما يدانيها ليس في مجال الشعر الغرامي وحده بل أيضاً في الشعر السياسي والوصفي والتأملي. إن النهد في عالم نزار الشعري قضية ونغمة لازمة، ولنقل إن النهد «تنهيدته» الشعرية. إنه يتنهد دائماً مع النهد بل يتنهد نهداً مطلقاً والنهد دائماً زلزال مشرئبٌ وشامخ ومتطلع إلى الأغوار البعيدة، ليعانق السحب والنجوم ويتأبى على كل احتواء، وذلك من أيام «**طفولة نهد**» إلى أيام «فاطمة»:

أحبيني، كزلزال، كموتٍ غير منتظر...

وخلّي نهدك المعجون بالكبريت والشرر

يهاجمني كذئب جائعٍ... خطر...

أنا رجلٌ بلا قدر...

فكوني أنت لي قدري

وأبقيني على نهديك... مثل النقش في الحجر..

ففي هذه القصيدة النزارية ذات التوتر العالي يحاول النهد نفسه أن يعبر عن وظيفته الرمزية المشحونة بصبوة المطلق والمستحيل. ولكن النهد عند نزار ليس رمزاً إطلاقياً ولا مجرد كلمة حسية إغوائية على نحو ما درج في أيام تجاربه الأولى.. إن جسارة النهد وقوة أسره ناجمتان عن الجمع بين البعد الحسي المثير والبعد غير الحسي بل اللا بعد الموصول بالمطلق والآفاق القصيّة التي لا تدرك.. وإلا فكيف نفهم هذه التعريجة على النهد في قصيدة دمشقية كلها شمم وحنين رفيع، ومع اسم فاطمة بالذات، وهو من الأسماء المتكررة عنده.

ألا تـــزال بـخـير دار فـاطـمـة

فـالـنـهـد مـسـتـنـفـر والـكـحـل صـداح؟

وكما يقول نزار، النهد عنده مرة ديك، ومرة سيف، ومرة حصان:

كـــان نـــهـــداك حـصــانـين بــلا ســـرج
وكـانـا يـشـربـان المـاء مـن قـعـر المـرايـا
وأنـــــا مـــن أمــــة تحـــترم الخـيــل
ومـــا لـلـخـيـل مـن طـبـع كـريـم وسـجـايـا

ولكن هذا الترميز يجب ألا يُخفي الأصل الحسي للنهد، فالنهد يبقى دفقاً صارخاً من ينابيع اللذة الجسدية، ولو استعرنا من فرويد بعض تفاسيره لأمكن أن نقول إن رمزية نزار الشعرية تكشف أصلاً عن عطش لا سبيل لأن يُروى أو يُفثأ، لذلك يُطلّ النهد باستمرار على العالم الشعري بإذن ودون إذن وربما لتجاوز غبن وظيفته الحيوية الخاصة[19].

وتظل إيماءات نزار متنوعة، فتارة تلمس مختلف مظاهر الاندفاع والإغواء والتطلع إلى رموز الحياة الاجتماعية، وتارة يبشر النهد بشروق الشمس وإطلالة الصباح وغير ذلك من محركات العيش المتراوحة بين الاستمتاع باللذة وبين ضرورة التجاوب مع مستلزمات الحياة والاندفاع في خضم الطموح اليومي. ولكن الدخول في هذه المعمعة لا بعد له ولا نهاية:

قضيت بشارع نهديك
نصف حياتي
وما زلت أجهل من أين باب الخروج؟
وأين نهايات هذا الفضاء؟

---

19 . وهناك تفسير آخر لابد أن يؤخذ بعين الاعتبار عثرت عليه في الموقع الإلكتروني الرسمي لنزار «www.nizarq.com» وفيه تفسير غريب لتعلق نزار بالنهد، مفاده: « نشأ نزار في هذا الجو الرومانسي الجميل، تربطه بأمه علاقة حميمة، فقد ظلت ترضعه من صدرها حتى بلغ السابعة من عمره، وتطعمه الطعام بيدها حتى بلغ الثالثة عشرة من عمره، حتى قالوا عنه إنه يعاني من عقدة «أوديب»عاشق أمه، حتى إن بعض العلماء النفسيين أخذ يطبق علم النفس على شعر نزار، ويرى أن سر استعماله كلمة «نهد» هو طول فترة رضاعته

وما زلت أجهل كيف يهدد نهد
بعز الطفولة أمن الرجال»[20].

وتنتهي جولات النهد النزارية التي تخترق كل حاجز من حياتنا بنهاية جريئة ترجع العربي إلى معضلته الأساسية وهي مصير العرب، وربما أيضاً علاقة هذا المصير بالنهد. وفي ذلك إيماء إلى معضلة المجتمع العربي مع الجنس بسبب الحرمان، وأين الخلاص؟ وهيهات...

السفر: ومن المفاتيح الدلالية الفنية عند نزار كلمة «السفر» ومشتقاتها. فهناك دائماً سفر في الجسد، وسفر في المكان، وسفر في الزمان، وسفر في العواطف، وسفر في الأشياء... في شعر نزار نظل في سفر ليس له محطة نهائية، وهذه الدلالة السفرية ترمز لانعكاس مزدوج في تجربة الشاعر الحياتية والفنية، فهو فعلاً المسافر الأبدي من مدينة لأخرى ومن قارة لأخرى، وهو المسافر الدائم من مرحلة فنية إلى مرحلة أخرى، والمحطات عنده مجرد انقطاع مؤقت عن السفر فالمحطة هي مجرد انطلاقة السفر والسفر هو المحطة وهكذا دواليك.. كأنما الاستقرار يعني التجمد والخمول.
والسفر يعني التجدد الدائم.. وهذا أمر معروف في تجارب شعراء التجديد وعلى رأسهم أبو تمام «فاغترب تتجدد». ولكن أين أسفاره بين الشام ومصر من جولات نزار بين القارات؟.. إن السفر الجغرافي والسفر اللغوي والسفر الفني، كلها أسفارٌ خدمت نزاراً في محاولته الدائمة للخروج على مألوفية الحياة ورتابة إيقاع العيش الراكد، كما دفعته دفعاً إلى تصيّد الجديد وإن يكن ضمن الخط العام الذي رسمته له موهبته وثقافته وتطلعاته، ولذلك ظلت المسألة في حدود تغيير العباءات. كما سبقت الإشارة. أما الإهاب النزاري فهو هو أو هو إياه «بالإذن من سيبويه».

العصفور: ومع السفر هناك دائماً «عصفور» يتجول في حدائق الياسمين

---

20. قصيدة التلميذ في: خمسون عاماً في مديح النساء، نزار قباني، منشورات نزار قباني

والنارنج و«يقفز» بين الأحبة، وبين الخواطر، ويحمل البشارة والأمل لبني الإنسان، ويفتح لهم الكوى على آفاق الحرية والوجود الأرحب. كأن نزاراً إذا لم يسافر بنفسه أو بمخيلته، فهناك العصفور ـ كالنهد أو أقل بقليل ـ دائماً في حالة جاهزية لحمل البشرى الناعمة المكتحلة برفيف الغوطة الغنّاء، أو لخوض مغامرة جديدة في الطيّات المجهولة.

دمشق الشام: شعراء الشام، مثل شعراء الأندلس، لا يكفيهم الحنين إلى الوطن على طريقة سائر البشر، إن الشام عند نزار مثلاً «الشام أو بالأحرى دمشق الشام» كلمة ذات دلالة مفتوحة على كل ما هو جميل وناعم ومزهر وحريري ومطرب وأليف ووفي وأخضر ومائي، وشامخ وعاطفي، وأخيراً كل ما يؤلف قاموس الأصالة العربية والإنسانية.. ونزار هو الأقوى دلالةً والأقدر على التغلغل في تضاريس «وحنايا» الجسد الشامي. وهنا يكفي أن يذكر الإنسان تلك الجملة العظيمة التي «أنشدها» نزار نثراً في المقدمة الطويلة التي مهدت لأمسيته الشعرية في مكتبة الأسد الوطنية بدمشق في 1988/8/22 :

«إن جغرافية جسدي هي استمرار لجغرافية الشام، حتى إنني لا أعرف أين تبدأ تضاريس جسدي ولا أين تنتهي تضاريس قاسيون».

في الشعر، كما في النثر، كما في جولات حياته الدنيوية، كما في جلساته بين خلانه، كان نزار هو دمشق، ودمشق هي نزار، وتداخلت الدلالات.

ومن لم يصدق فله هذا الشاهد:

هذي دمشق، وهذي الكأس والراحُ
إني أحبُّ، وبعض الحب ذبّاح
أنا الدمشقي لو شرحتمُ جسدي
لسال منه عناقيد وتفاح
ولو فتحتم شراييني بمديتكم
سمعتمُ في دمي أصوات من راحوا
زراعة القلب تشفي بعض من عشقوا
وما لقلبي إذا أحببت جراح

ألا تـــزال بـخـيـر دار فـاطـمـة
فـالـنـهـد مـسـتـنـفـر والـكـحـل
إن الـنـبـيـذ هـنـا نـار مـعـطـرة
فـهـل عـيـون نـسـاء الـشـام أقـداحُ
مـآذن الـشـام تـبـكـي إذ تـعـانـقـنـي
ولـلـمـآذن كـالأشـجـار أرواح

وهنا يستطيع أي منصف أن يقول إن الشعر العربي قديمه وحديثه لم يبلغ مثل الالتصاق المحسوس في أرجاء الوطن والجسد بمختلف طياتهما.
ومع ذلك يمكن أن يذكرنا التصاق نزار الوطني والسيكولوجي بأرض الشام – ولو في إطار آخر – بالتصاق شعراء المقاومة الفلسطينية بالأرض والتراب والوطن إلى درجة تشبه العبادة. وهناك أيضاً الالتصاق الفلسفي بالأرض الذي عبر عنه أبو العلاء المعري بأروع تعبير:

جـسـدي خـرقـةٌ تـخـاط إلى الأرض
فـيـا خـائـط الـعـوالم خِـطـنـي.

ويمكن القول إن نزاراً يتأرجح بين الشعر والشعر القريب من النثر عمداً حين يتعلق الأمر بخصوصياته الحياتية «أمه ، داره ، دمشقه ، شامه» والتي يتبعها استعمال المفردات المنزلية اليومية «عروسة الزيت والزعتر»، «لم تعد تعجبني أي عروس في الدنيا». وتبقى أم المعتز عنده فوق كل شيء.
كما نلاحظ أنه لم يستخدم اسم سوريا في أشعاره أو حواراته، واكتفى بمصطلحي الشام ودمشق، كما اكتفى بأن يصل طموحه إلى التعبير عن واقع المئتي مليون عربي آنذاك، وتأسيس لغة مشتركة عربية ولغة غير شعرية لأن أية كلمة في رأيه يمكن تحويلها إلى شعر ربما لتحقيق هدفه في تأميم الشعر.

ماذا أعطى نزار للشعر العربي والوطن العربي ؟

سوف يسجل لنزار تاريخُ الشعر العربي الحديث عدة فضائل فكرية وفنية فائقة إضافةَ إلى غزارة المضمون القومي والوطني والإنساني، المبني على عمق رسالة الشاعر والتزامه الذاتي وجرأته في مواجهة الظلم والاضطهاد والتقصير والتخلف، وهو فارس مغوار في هذه المجالات، وكان موقفه يزداد صلابة كلما ازداد تماسُّه مع مجتمعات الآخر غير العربي على امتداد الكرة الأرضية، ولاسيما عواصم الغرب «بريطانيا، إسبانيا، فرنسا، سويسرا الخ..». ولكنه خلافاً للكثيرين من الذين أتيح لهم الاطلاع على حياة الآخر، لم يطالب بتقليد هذه المجتمعات تقليداً أعمى كما فعل مصلحون كثيرون قبله.

ومن الإنصاف أن نكرر أن قصائده المتعلقة بالآخر لم تدفعه إلى تضخيم عظمة هذه المجتمعات، وإنما كان يركز على فهم هذه المجتمعات وإدراك نقاط القوة والضعف فيها. وحتى أمريكا بالذات لم يوفرها ولم ينسَ غرائبها واختلافها عن سائر أقطار العالم. وما أجمل ما قدم معلقته في أمريكا من خلال بضع نفثات مختصرة في الظاهر وعميقة في الباطن والدلالة، وذلك إلى جانب تساؤله مع نفسه: من هو في أمريكا؟ وما هي حقيقة طبيعتها بالقياس إلى بلدان الشرق والغرب؟ وأين ينبغي أن يكون موقفه من ظواهر عظمتها البراقة؟

إن هذه المعلقة المكوّنة من اثني عشر مقطعاً شعرياً تكاد تلخص حقيقة موقع العربي من العالم وموقع نزار نفسه كشاعر عربي تطأ قدماه عالماً جديداً فتثير شجونه من خلال المقارنة بين وطنه في ذلك الحين وبين العالم الجديد، تماما كما حدث لشعراء أوروبيين زاروا مثله أمريكا وأثارت في نفوسهم تساؤلات اجتماعية ونفسية حول الهوية ومستقبل الإنسانية.

- 1 -

من أنا في أمريكا ؟

أعبر البحر إلى شاطئكم

باحثاً عن خاتم الحب الذي ضيعته

منذ خمسين سنة
باحثاً عن شَعر بلقيس الذي ضيعته
منذ خمسين سنة
وسؤال واحد يقلقني
من أنا في أمريكا ؟
من أنا في زمن الحاسوب ... و «الروبوت» ..
والقلب الصناعي ... وموسيقا «مادونا» ؟
من أنا في زمن الحبّ ؟
يصنعون الحبَّ في عيادات الأطباء..
فحبٌّ بالأنابيب
وثورات ... وضباط ..
يجيئون إلى السلطة من جوف الأنابيب ..
فماذا يغنّي شاعر الحب هنا ؟ [21]

من الجميل أن نلاحظ بعد تساؤله عن «أناه» كيف تذكّر بلقيس والحب المضيّع في تلك الأصقاع النائية وفي غمرة ضوضاء الحياة الأمريكية الصاخبة والمذهلة، وقد يستنتج الإنسان أن يكون هذا التذكر ناجماً عن زخم الشعور بالوحدة والغربة هناك وطلب النجدة، وهيهات.

ومن حق القارئ أيضاً أن يتساءل عن مصير شاعر الحب الذي جاوز الخمسين في خضم العجائب التي يصعب أن تمنح الإنسان أي شعور سوى الرعب الداخلي، ويزداد هذا الرعب الداخلي إيلاماً حين يتذكر الشاعر أن شعره ليس له وطن أو وجهة:

ما لشعري وطن أو وجهة [22]
فلقد أقرؤه في أمريكا

21. من ديوان «خمسون عاماً في مديح النساء»، منشورات نزار قباني ، بيروت 1994 : ص ص 167-168. وقد أهداني نسخة خلال زيارته للدوحة 1995 . وكان فخوراً بما طرأ على شعره من تطورات .

22. من ديوان «خمسون عاماً في مديح النساء» - 170

ولقد أقرؤه في الصين، أو في الهند، أو في السند..
أو فوق جبال الهملايا..
ولقد أتلوه في باريسَ ..
أو في الشام، أو في مصرَ، أو في «زحلة»
بين أحضان الدوالي.. وأغاني «الميجنا».
إنني أحمل أوراقي، وأقلامي، وأحزاني على ظهري
وأبني بحروفي مدناً.
فإذا ما صادروا شمس بلادي
فبشعري سوف أبني وطناً..

وهكذا حيثما حلت به الركاب فإنه يحمل أوراقه وأقلامه وأحزانه على ظهره ويظل شعره وطن الخلاص البديل.

ومقابل هذه الجولات العصرية جداً، بل قبلها، كانت هناك دائماً صورة الماضي العربي التاريخي من تليد وغير تليد. ويتضح هول المأساة المعاصرة المتمثلة في تدهور الوضع العربي الحاضر وتهاون حكامه وتفتت مواقف أقطاره، من خلال استدعاء وقائع الماضي العربي التليد والتركيز على الفارق المذهل بين عظمة حكام الأمس وتهاون حكام الحاضر:

يا شام أين هما عينا معاوية
وأين من زحموا بالموكب الشهبا
فلا خيول بني حمدان راقصةٌ
زهواً ولا المتنبي مالئٌ حلبا
وقبر خالد في حمص نلامسه
فيرجفُ القبر من زواره غضبا

وهذا شأن الشام، والى جانبه يأتي حال مصر وبغداد ومجمل أقطار الوطن العربي. ومن خلال لهجة عنيفة يستعيد نزار مآسي العواصم العربية الأخرى

وما لحقها من دمار وظلم وإذلال على يد حكام الأمس مثل كافور مصر وغيره شرقاً وغرباً. ولكنه دائماً لا ينسى حكام اليوم ولا يقصر في فضح تهاونهم وخذلانهم.

ما زال أبو لهب يتمطى فوق وسائد هذا الشرق
يتسلى في قصّ الحلمات
وقطع الثدي وضرب الأعناق ...

وهنا لا يختلف نزار كثيراً عن أقرانه من الشعراء العرب القوميين، فهاهو يستنجد بصلاح الدين وأعوانه :

رفيق صلاح الدين ؟! هل لك عودة ؟!
فإن جيوش الروم تنهى وتأمر
يحاصرنا كالموت ألف خليفة
ففي الشرق هولاكو وفي الغرب قيصر

نستطيع أن نقول، ولو بشيء من الحذر، إن نزاراً أعطى الشعر القومي نكهة خاصة تكاد تكمن في طريقته المتمثلة بدمج الهم الجماعي بالهم الفردي ربما في محاولة للبعد النسبي عن اللهجة الخطابية، ولحقنها بمشاعر عاطفية ذات طابع شخصي. ومن خلال عبارات طازجة ومفردات ذات طابع عصري كان كثير من شعراء عصره ينفرون من إدخالها في قاموسهم الشعري، وكان غرامه واضحاً بالمفردات العصرية المنتشرة عالمياً دون أن يبالي بإملاءات مجامع اللغة العربية وتحفظات أساتذتها. ومرة أخرى نذكر أن غرامه كان واضحاً بالمفردات العصرية المنتشرة عالمياً، حتى إنه من الممكن للمؤرخ اللغوي أن يلتقط كثيراً من المفردات النوعية المعاصرة من خلال تطور قصائد نزار وطريقته في استخدامها. وبالطبع لم يكن نزار يفعل ذلك لضعف باللغة العربية، فهو ابن بجدتها، ولكن كان غرامه واضحاً بالمعاصرة، وكأنت تلك المفردات تعطي شعره نكهة خاصة. بل إنه من الممكن للمؤرخ اللغوي أن يلتقط

كثيراً من المفردات النوعية المعاصرة من خلال تطور لغة نزار وطريقته في استخدام دلالاتها. ونظنّ أنه كان عن عمد يتحدى التزمت اللغوي ويعتزّ بمفرداته المعاصرة، وفي الوقت نفسه كان يحرص إلى حد ما على عدم المساس بصحة تركيب الجملة، ويظهر ذلك جلياً في دواوينه المتأخرة وإجاباته على أسئلة المقابلات الصحفية والمناظرات العامة. ويمكن القول إن إقامته في الديار الأجنبية أغنت مخزونه اللغوي وشجعته على الابتكار ودقة توظيف المصطلحات الجديدة، وما أكثرها في ديار الغرب.[23]

أخيراً كان نزار عاشقاً للغة العربية، وكان تعلقه بها صادراً دائماً عن عزم وإصرار على الإسهام في تطوير استعمالاتها. إن كل ما قاله نزار كان صادراً عن قصد وعزم من خلال فهمه لوظيفة الكتابة، كما توضح المقالة التالية التي نشرها في «الحياة»، في كانون الأول 1991، أي في ذروة مرحلة النضج والاكتمال، وتكاد تكون أشبه بقصيدة من الشعر الحديث المنثور، على الأقل في إيقاع للمفردات وموسيقا العبارات، وطزاجة الصور وغرابتها في بعض الأحيان. مع التذكير هنا أنه وقف وقفة صلبة ضد ما سمّاه «قصائد الأنابيب» :

مثلما يوجد في الطب «أطفال الأنابيب» أصبح في الشعر «قصائد الأنابيب»... «وربما كان من المستحيل على المجتمع العربي أن يستوعب كيف يمكن تأجير رحم القصيدة. كما تؤجر البيوت والدكاكين والكراجات».[24]

وتثبت هذه المقالة أن الإبداع هو الإبداع سواء أكان شعراً أو نثراً، كما توضح ما آلت إليه تجربة نزار في مجال التواصل مع المتلقي.

---

23 . ملاحظة جانبية : هذه شهادة من إنسان غارق في حب اللغة العربية وحريص على الالتزام بها في محاضراته الجامعية والمؤتمرات الثقافية والمناسبات الوطنية . إلا أنه من خلال تجربة طويلة في التعليم والكتابة أصبحت مقتنعاً بأن التزمت اللغوي يحتاج إلى مراجعة ومرونة تتناسب مع التطورات اللغوية العصرية على المستوى العالمي.

24 . نزار قباني : «قصائد الأنابيب» ، الحياة ، 1993/6/12 ، ص 16 .

مما لا شك فيه أن الإتقان اللغوي بحد ذاته كان، وسوف يظل، عاملاً أساسياً، بل شرطاً لا يمكن إغفاله sine qua non في مجال الإبداع الشعري، وهناك مواهب لا تحصى ذات تطلعات شعرية وأحاسيس إبداعية يخفق أصحابها في التعبير عن تموجات قلوبهم ومكنونات نفوسهم بسبب عدم تمكنهم من ترويض تعبيرهم اللغوي، وقد يكونون ذوي موهبة في مجالات الفنون الأخرى التي لا تحتاج إلى موهبة لغوية كالرسم والموسيقا، وهذه حقيقة بَدَهيّة إذ «كلٌ ميسرٌ لما خُلق له...». إلا أن هذه الظاهرة تزداد تعقيداً في مجال اللغة العربية بسبب الفجوة اللغوية بين الفصحى والعامية.

مرةً أخرى يُسجّل لنزار أنه وعى في وقت مبكر جداً أهمية إتقان اللغة العربية وطبيعة حساسيتها، وظلّ وفياً لما تعلّمه من إبداع لغوي على يد أساتذة في مراحل تعليمه الأولى، وفي مقدمتهم الشاعر الأديب خليل مردم بك الذي كان أبرز مدرسّي نزار. وفيما بعد قاده هذه الوعي المبكر إلى متابعة شعراء ملهمين آخرين مثل بشارة الخوري وأمين نخلة وسعيد عقل. إلا أن الموهبة تحفر مجراها كما يُقال، إذ تابع نزار شعراء الزجل اللبنانيين وأصغى إليهم بأذنه اللاقطة، وظلّ وفياً لهم وفُتن بمدينة زحلة بوجه خاص، وله في التغنّي بها جولات شعرية مثيرة. بل إنه حظي بموهبة امتصاص لغوي حي يختلف كثيراً عن التعلّم الوظيفي المحدود للعاملين في السلك الدبلوماسي، وله في تصنيف اللغات ومضات مذهلة واضحةً في كتابه «قصتي مع الشعر»[25]. وإلى جانب ذلك تعلم لغات أجنبية كل في موطنها مثل الإنكليزية ولغات أخرى من خلال عمله الدبلوماسي. وله رأي مثير في تصنيف الفروق بين تلك اللغات من زاوية العلاقة بالإبداع الشعري، بل إن حساسيته اللغوية دفعته إلى تصنيف الإفادة من اللغات المختلفة وفقاً لمقاصد الموضوع الشعري. ثم إنه كان حريصاً

---

25. أتمنى لكل شاعر مبتدئ أن يوفر على نفسه انتقاء نوعية اللغة حسب مبدأ « لكل مقام مقال » ، وأن يقرأ بإمعان ما أورده نزار بهذا الشأن في كتابه هذا تحت عنوان «مدرستي الأولى هي اللغة العربية» «ص 61» ، ويظل الشرط الأول للإبداع الشعري والنثري هو الإتقان الدقيق للغة الأم .

على انتقاء مستوى اللغة العربية وفقاً لتنوع أغراض القصيدة. وله في ذلك مطالعة فائقة ودفاع مقنع بشأن طريقته في انتقاء الهوية اللغوية المناسبة لموضوع كل قصيدة. وفي ذلك يقول:

«إن الشعراء – لا اللغويين ، ولا النحاة، ولا معلمي الإنشاء – هم الذين يحركون اللغة ويطورونها ويحضّرونها ويعطونها هوية العصر». على أنه في النتيجة عشق اللغة الإسبانية وأحب آدابها وامتدحها بمناسبات كثيرة، وأفاده عمله الدبلوماسي في مدريد «1962-1966» على ممارستها، وفي ذلك يقول: «وصلت علاقتي باللغة الإسبانية إلى مستوى العشق، ولاسيما حين استطاعت هذه اللغة أن تحتويني احتواءً تاماً، حين تولى المستشرق الإسباني بدرو مارتينث مونتافث ترجمة مختارات من شعري إلى اللغة الإسبانية، وصدرت هذه المختارات عن المعهد الثقافي الإسباني العربي تحت عنوان «أشعار حب عربية»... وقد تحدث نزار كثيراً عن بدائع حياته في إسبانيا في شعره وفي نثره.

إلا أن حب نزار للغة الإسبانية لم يمنعه من التركيز على اللغة الإنكليزية، التي أدرك أهميتها مبكراً وتابعها بقدر ما أحبّ الإسبانية، وكنت أشرت سابقاً إلى أن لقائي الأول معه تمّ على مقاعد قسم اللغة الإنكليزية بجامعة دمشق أواخر خمسينات القرن الماضي. وقد استشهد في كتاباته النثرية بإزار باوند وسمرست موم وغيرهما.

وكذلك لم ينسَ الإشادة باللغة الفرنسية ونعومتها وجمال نغماتها. وقد تحدث عن كل لغة من خلال محاسنها وعذوبتها، والغريب أنه تجاوز أية انتقادات في مجال الكلام على اللغات، مع أنه اتصل بلغات يصعب أن يطرب لها المرء فهل كانت تاء التأنيث هي الدرع الذي حماها من سلبية أذن نزار المرهفة؟![26].

ومرةً أخرى ينبغي أن نتذكر أن قضية اللغة عند الشاعر هي عامل صميمي ليس فقط في مسألة التعبير عن مزاجه ومشاعره بل هي عامل أساسي في

---

26 . ما أظن إلا أن أمير الذوق سوف يسامحني لهذه المداعبة!!. والمثال هو اللغة الصينية التي جابهته في أول حياته الدبلوماسية!!

التحكم بمزاجه ورؤيته وحكمه على الأشياء في داخله ومن حوله. وبالنسبة لنزار بالذات كانت اللغة تحوم في صدره ومن حوله في كل حركةٍ أو موقف، وتدخل فجأة في تحديد بل تفجير موقفه النفسي سلباً أو إيجاباً ولاسيما في أجواء الفرح الغامر أو الضيق الفاجر. فمثلاً في قصيدة «هذه هي حبيبتي هذه هي مدينتي» ، يبحث عن مخرج من الضغط النفسي والثورة المتأججة في داخله، فلا يجد سوى انفجار لغوي يتجاوز كل الحدود، وبعد تسع مقاطع من البحث عن مخرج يأتي انفجار اليأس المدمر:

أبحث عن سواحل مفتوحة رحيبة
عن أي شكلٍ هارب من شكله.
عن لغة غريبة ..
تغسلني من صدئي
تغسلني من دبق العروبة. [27]

27 . نزار قباني : خمسون عاماً في مديح النساء ، منشورات نزار قباني ، 1994 : ص 162 .

الكتابة هي عمل انقلابي...

بقلم نزار قباني

الكتابة هي عمل انقلابي. عمل يستهدف تغيير هندسة الكون، وهندسة الإنسان.
وعندما يغيب الشرط الانقلابي عن الكتابة، ينتهي مبرّرُ وجودها.
بتعبير آخر، ليس ثمّة كتابةٌ لا ترجُّ... ولا تخضّ... ولا تُخلخل... ولا تحدث حفرة عميقة في داخل الوجدان الشعبي.

هذا ما وضعتُه في رأسي، منذ كتبت كلماتي الأولى عام 1940.
ولا أزال بعد خمسين عاماً مقتنعاً أن الكتابة تكون عملاً انقلابياً أولاً تكون ... تكون عملاً انتحارياً أو لا تكون...
ولا أهمية لكاتب يأتي إلى الوجود ويذهب ... دون أن يحرّك المياه الجوفية في مجتمعه... ودون أن يحرّض الأشجار على تغيير أوراقها... والأنهار على تغيير اتجاهها... والأشكال على تغيير أشكالها...

لا كتابةَ – إذنْ – بغير تحريض.
وكلُّ قصيدة يكتبها شاعر، هي تحريضٌ لغويٌّ على السمو، والتمدّن، والانعتاق، والحرية.

كلُّ قصيدة جميلة ترفع الإنسان ألفَ قدم عن سطح البحر.. والأمسية الشعرية التي نذهب إليها تحوّلنا – خلال ساعة – إلى كائناتٍ من الضوء ... فنرجع إلى بيوتنا ونحن أنصافُ آلهة...

الشعرُ، زلزالٌ يشقُّ ورقةَ الكتابة إلى نصفَيْن...
زلزالٌ جميل.
يخرّبُ من جهة... ويعمّر من جهة...

يشعلُ النار في ثيابنا... ثم يرشُّنا بالماء...
يفككنا مليون قطعة... ثم يعيد تجميعنا...
يُطلقُ النارَ على الحكومة... ويدخل الأحياء الشعبية حاملاً للأطفال أكياس الحلوى... وللنساء أطواق الياسمين...

الكتابة هي الجلوس على حافة الهاوية.
لا على فراش حرير... ولا على سجّادة تبريزية... ولا على كرسي هزّاز...
إنها الإبحار في فضاء من الأسئلة... دون أن يكون معك تذكرة للعودة.

الكتابة ليست مصحّة... ولا تكيّة... ولا ملجأ عَجَزة... ولا مركزاً طبياً نعالج فيه أعصابنا بالإبر الصينية... والحمّامات المعدنية.
وهي بالتأكيد ليست شركة تأمين، نؤمّن لديها على أصابعنا ضدَّ الحريق، وضدَّ الاصطدام ببولدوزرات النظام، وشاحناته العسكرية...

لا يمكن للكاتب أن يغسل يديه بالإسبيرتو... ويضع على فمه الكمّامات البيضاء... خوفاً على نفسه من جرثومة الملاريا... أو الكوليرا... أو الإيدز...
ولا يمكنه أن يختبئ في داخل أنبوبٍ معقّم... ويكتب بحبر معقّم... على ورقٍ معقّم... ويؤلف كتباً معقمةً بالدّيتول...
لا يمكن للكاتب أن يهرب من رائحة البشر... ومن مصافحة البشر... ومن أكل خبز البشر... ومِن النوم في سرير واحد مع أحزان البشر...
الكتابة هي سلطةٌ مطلقةٌ على الورق.
سلطةٌ متحرّرة من كلّ الاستعمارات السياسية والاقتصادية ومن كل الجيوشِ الاجنبية، ومراكز القوى...
سلطةٌ لا تخضع إلا لسلطتها هي.
وليس لها رئيس، ولا مجلس إدارة، ولا مستشارون قانونيون، ولا موازنة، ولا محاسبون، ولا مموّلون، ولا أرصدة سرية في المصارف السويسرية...
ولأنّ الكتابة تتمتع – مثل دولة الفاتيكان – بنوع من الحصانة السماوية،

أو الحصانة الميتافيزيكية...
فلا أحد يستطيع أن يرجمها بحجر...

من يقول لكَ إنه كاتب محايد... فهذا يعني أنه كاتب ميّت.
ليس في الكتابة منطقة منزوعة السلاح... أو منطقة حرام...
أو منطقة تتولى قوات الأمم المتحدة فيها الفصل بين المتحاربين...
الهدنة في الكتابة مهمةٌ مستحيلة.
والكاتب الحقيقي، هو الكاتب الواقف دائماً على الخطوط الأمامية...

عندما ترضى القصيدة أن تنام مع الإيديولوجية في فراشٍ واحدٍ ...
تفقد عذريتّها...

الكتابة ليست مقهى نشرب فيه الشايَ واليانسون... وليست اصطيافاً على شواطئ نيس... وكان... وجزر الكناري...
إنها اشتباكٌ يوميّ بالسلاح الأبيض، مع القبح والتخلف... والفكر الفاشيستي...
الكتابة ليست فعلَ امتثال ، ولا فعْلَ رضوخ... ولا فعلَ تنازل...
ولكنها فعلُ انقضاضٍ علىً كلّ بَشاعاتِ هذا العالم.

ليس مطلوباً من الشاعر أن يعرف فنَّ البروتوكول، وآدابَ السلوك، وطريقة الجلوسِ على المائدة...
فالشاعرِ قد يأكلُ بأجفانه...
وقد يأكلُ بأعصابه...
وفي ساعات شروده، قد يشرب دمَهُ مكان النبيذ...

الكاتبُ ليس مواطناً في مدينة «نعم»...
ولكنه مواطنٌ في مدينة «لا» ...
والكَتَبةُ الذين يوّقعون على بيانات السلطة، دون أن يروها، إنما يوقّعون

على شهادة وفاتهم...

الكاتبُ الذي يعلّق على جبينه نمْرةً من نِمَر السيارات الرسمية... يتحوّل إلى شاحنةٍ لنقل النفايات...

لا أستطيع أن أستوعب كيف يمكن لكاتبٍ أن يُفصّلَ فكرَهُ على مقياس قَدَم الدولة !!
لا أستطيع ...

لندن – كانون الأول «ديسمبر» 1991

القسم الثالث

حوارات ومساجلات

1 – في رثاء طه حسين : حوار ثوري

2 – مساجلة مع نجيب محفوظ

3 – نزار وجمال عبد الناصر ورسائل بسبب قصيدة ممنوعة

4 – مقابلة مثيرة في أيامه الأخيرة

5 – مقاطع من مقابلة مع د. رياض نعسان آغا

6 - الفنان في التزامه الذاتي

1- في رثاء طه حسين : حوار ثوري

ضوءُ عينَيْكَ أمْ هُما نَجمَتان؟
كُلُّهمْ لا يَرى .. وأنتَ تَراني
لستُ أدري مِن أينَ أبدأ بَوْحي
شجرُ الدمعِ شاخَ في أجفاني
كُتِبَ العشقُ، يا حبيبي، علينا
فهوَ أبكاكَ مثلما أبكاني
عُمْرُ جُرحي .. مليونَ عامٍ وعام
هلْ تَرى الجُرْحَ منْ خِلالِ الدُخانِ؟
نَقَشَ الحبُّ في دفاترِ قلبي
كُلَّ أسمائه ... وما سَمَّاني
قالَ : لا بُدَّ أن تَموتَ شهيداً
مثلَ كُلِّ العشّاقِ ، قلتُ عَسَاني
وطويتُ الدُجى أُسائلُ نفسي
أَبِسَيْفٍ .. أم وردةٍ قد رماني ؟
كيفَ يأتي الهوى، ومن أينَ يأتي؟
يَعرِفُ الحبُّ دائماً عنواني
ما عَلَينا إذا جَلَسْنا بِرُكنٍ
وَفَتَحْنا حَقائبَ الأحزانِ
وقرأنا أبا العلاء قليلا
وقَرأنا «رِسَالَةَ الغُفْرانِ»

أنا في حضرة العُصور جميعاً
فزمانُ الأديب .. كلُّ الزّمانِ
ضوءُ عينَيْك .. أم حوارُ المَرايا
أم هُما طائرانِ يحترِقانِ ؟
هل عيونُ الأديب نهرُ لَهيب
أم عيونُ الأديبِ نَهرُ أغاني ؟
آهِ يا سيِّدي الذي جعلَ للّيلَ
نهاراً .. والأرضَ كالمهرجانِ ..
ارمِ نظّارَتَيْكَ كي أتملّى
كيف تبكي شواطئُ المرجانِ
إرمِ نظّارَتَيْكَ ... ما أنتَ أعمى
إنّما نحنُ جوقةُ العميانِ

* * *

أيّها الفارسُ الذي اقتحمَ الشمسَ
وألقى رداءَهُ الأُرجواني
فَعلى الفجرِ موجةٌ من صهيلِ
وعلى النجمِ حافرٌ لحصانِ ..
أزْهَرَ البرقُ في أنامِلكَ الخمسِ
و طارت للغرب عصفورتان
إنّكَ النهرُ .. كم سقانا كؤوساً
وكسانا بالورد والأقحوان
لم يَزَلْ ما كَتَبْتَهُ يُسكرُ الكونَ
ويجري كالشّهدِ تحتَ لساني
في كتابِ «الأيّام» نوعٌ منَ الرّسم
وَفيهِ التفكيرُ بالألوانِ ..

إنَّ تلكَ الأوراقَ حقلٌ من القمحِ
فمِنْ أينَ تبدأُ الشّفتانِ؟
وحدَكَ المُبصرُ الذي كشَفَ النَّفسَ
وأسْرى في عَتمةِ الوجدانِ
ليسَ صعباً لقاؤنا بإلهٍ ..
بلْ لقاءُ الإنسانِ .. بالإنسانِ ..

* * *

أيّها الأزْهَرِيُّ ... يا سارقَ النّار
ويا كاسراً حدودَ الثواني
عُدْ إلينا .. فإنَّ عصرَكَ عصرٌ
ذهبيٌّ .. ونحنُ عصرٌ ثاني
سَقَطَ الفِكرُ في النفاقِ السياسيّ
وصارَ الأديبُ كالبَهْلَوَانِ
يتعاطى التبخيرَ.. يحترفُ الرقصَ
ويدعو بالنّصرِ للسّلطانِ ..
عُدْ إلينا .. فإنَّ ما يُكتَبُ اليومَ
صغيرُ الرؤى .. صغيرُ المعاني
ذُبِحَ الشّعرُ .. والقصيدةُ صارَتْ
قينةً تُشترى كَكُلِّ القِيَانِ
جَرَّدوها من كلِّ شيءٍ .. وأدمَوا
قَدَمَيْهَا .. باللّفِ والدّورانِ
لا تَسَلْ عن روائعِ المُتنبّي
والشّريفِ الرّضيّ ، أو حَسّانِ ..
ما هوَ الشّعرُ ؟ لن تُلاقي مُجيباً
هوَ بينَ الجنونِ والهذيانِ

* * *

عُـدْ إلـيـنـا ، يـا سـيّدي ، عُـدْ إلـيـنـا
وانـتَـشِـلـنـا مـن قـبـضـةِ الـطـوفـانِ
أنــتَ أرضـعـتَـنـا حـلـيـبَ الـتّـحـدّي
فَـطـحَـنَّـا الـنـجـومَ بـالأسـنـانِ ..
واقـتَـلَـعـنـا جـلـودَنـا بـيـدَيْـنـا
وفَـكَـكْـنـا حـجـارةَ الأكـوانِ
ورَفَـضْـنـا كُـلَّ الـسّـلاطـيـن في الأرضِ
رَفَـضْـنـا عـبـادةَ الأوثـانِ
أيّـهـا الـغـاضـبُ الـكـبـيـرُ .. تـأمَّـلْ
كـيـفَ صـارَ الـكُـتّـابُ كـالـخِـرفـانِ
قَـنـعـوا بـالـحـيـاةِ شَـمـسـاً .. ومـرعـى
و اطـمـأنّـوا لـلـمـاءِ و الـغُـدْرانِ
إنَّ أقـسـى الأشـيـاءِ لـلـنـفـسِ ظُـلـمـاً ..
قَـلَـمٌ في يَـدِ الـجَـبَـانِ الـجَـبَـانِ
يـا أمـيـرَ الـحُـروفِ .. هـا هـيَ مِـصـر
وردةٌ تَـسـتَـحـمُّ في شـريـانـي.
إنّـنـي في حِـمـى الـحُـسـيـنِ، وفي الـلّـيـلِ
بـقـايـا مِـن سـورةِ الـرّحـمـنِ .
تَـسـتَـبـدُّ الأحـزانُ بـي .. فـأنـادي
آه يـا مِـصـرُ مِـن بـنـي قَـحـطـانِ
تـاجـروا فـيـكِ..سـاوَمـوك..اسـتَـبـاحـوك..
وبَـاعُـوك كـاذبـاتِ الأمـانـي
حَـبَـسـوا الـمـاءَ عـن شـفـاهِ الـيَـتـامـى
وأراقـوهُ في شـفـاهِ الـغَـوانـي
تَـركـوا الـسّـيـفَ والـحـصـانَ حَـزيـنَـيْـنِ
وبـاعـوا الـتـاريـخَ لـلـشّـيـطـانِ

يشترونَ القصورَ .. هل ثَمَّ شارٍ
لقبورِ الأبطالِ في الجَولانِ ؟
يشترونَ النساءَ .. هل ثَمَّ شارٍ
لدموعِ الأطفالِ في بَيسانِ ؟
يشترونَ الزوجاتِ باللحمِ والعظمِ
أيُشرى الجمَالُ بالميزانِ ؟
يشترونَ الدُّنيا .. وأهلُ بلادي
ينكُشونَ التُّرابَ كالدّيدانِ ..
آهِ يا مِصرُ .. كَم تُعانينَ منهمْ
والكبيرُ الكَبيرُ .. دوماً يُعاني
لِمَنِ الأحمرُ المُراقُ بسَيناءَ
يُحاكي شقائقَ النُعمانِ ؟
أكَلَتْ مِصْرُ كبْدَها .. وسِواها
رَافلٌ بالحَريرِ والطيلَسَانِ ..
يا هَوَانَ الهَوان.. هَلْ أصبحَ النفطُ
لَدَينا .. أغلى من الإنسانِ ؟
أيّها الغارقونَ في نِعَمِ اللهِ ..
ونُعمَى المُرَبْرَباتِ الحِسانِ ...
قدْ رَدَدْنا جحافلَ الرّومِ عنكم
ورَدَدْنا كِسرى أنوشِرْوانْ
وحَمَيْنا مُحَمَّداً .. وعَليَّاً
وحَفظْنا كَرامَةَ القُرآنِ ..
فادفعوا جِزيَةَ السّيوفِ عليكُمْ
لا تعيشُ السّيوفُ بالإحسانِ ..

* * *

سامِحيني يا مِصرُ إنْ جَمَحَ الشِّعرُ
فَطَعمُ الحريقِ تحتَ لِساني

سامحيني .. فأنت أمُّ المروءَات
وأمُّ السَّماحِ والغُفرانِ ..
سامِحيني .. اذا بكيتُ فإني
ليسَ لي سلطةٌ على أجفاني
سامِحيني .. إذا احترَقتُ وأحرَقتُ
فليسَ الحيادُ في إمكاني
مِصرُ..يا مِصرُ..إنَّ عشقي خَطَيرٌ
فاغفري لي إذا أَضَعتُ اتّزاني ...

* * *

تعليق:

أوردنا هذه القصيدة لعدة أسباب أهمها:

- تأكيد إبداع نزار في الشعر العمودي وجمالياته
- إظهار حرارة نزار تجاه رواد مصر العظام ورموزه، وله جولات مبكرة في هذا المجال.
- جمال ودفء القصيدة بحد ذاتها.
- الإبداع اللغوي الفائق، سلاسة التراكيب والقوافي.

2 - مساجلة مع نجيب محفوظ

قصيدة «المهرولون»

سقطتْ آخرُ جدرانِ الحياءْ
وفرحنا.. ورقصنا..
وتباركنا بتوقيع سلامِ الجبناءْ
لم يعد يرعبنا شيءٌ..
ولا يخجلنا شيءٌ
فقد يبستْ فينا عروقُ الكبرياءْ...

سقطتْ.. للمرة الخمسينِ عذريّتنا..
دونَ أن نهتزَّ.. أو نصرخَ..
أو يرعبنا مرأى الدماءْ..
ودخلنا في زمانِ الهرولهْ..
ووقفنا بالطوابيرِ، كأغنامٍ أمامَ المقصلهْ
وركضنا.. ولهثنا
وتسابقنا لتقبيلِ حذاءِ القتلهْ..

جوَّعوا أطفالنا عشرينَ عاماً
ورمَوا في آخرِ الصومِ إلينا..
بصلهْ...

سقطتْ غرناطةُ
-للمرّة الخمسينَ – من أيدي العربْ.
سقطَ التاريخُ من أيدي العربْ.
سقطتْ أعمدةُ الروحِ، وأفخاذُ القبيلهْ.
سقطتْ كلُّ مواويلِ البطولهْ.

سقطتْ إشبيليهْ..
سقطتْ أنطاكيهْ..
سقطتْ حطّينُ من غيرِ قتالٍ..
سقطتْ عموريَهْ..
سقطتْ مريمُ في أيدي الميليشيات
فما من رجل ينقذُ الرمزَ السماويَّ
ولا ثمَّ الرجولهْ..

سقطتْ آخرُ محظيّاتنا
في يد الروم، فعنْ ماذا ندافع؟
لم يعَدْ في القصر جاريةٌ واحدةٌ
تصنعُ القهوةَ.. والجنسَ..
فعن ماذا ندافعْ؟؟

لم يعدْ في يدنا أندلسٌ واحدةٌ نملكها..
سرقوا الأبوابَ، والحيطانَ، والزوجات، والأولادَ،
والزيتونَ، والزيتَ، وأحجارَ الشوارعْ.
سرقوا عيسى بنَ مريمْ
وهوَ ما زالَ رضيعاً..
سرقوا ذاكرةَ الليمون..
والمشمش.. والنعناعِ منّا..
وقناديلَ الجوامعْ

تركوا علبةَ سردينٍ بأيدينا
تسمّى «غزّة»
عظمةً يابسةً تُدعى «أريحا»
فندقاً يدعى فلسطينَ..
بلا سقفٍ لا أعمدةٍ..

تركونا جسداً دونَ عظام
ويداً دونَ أصابعْ...

لم يعدْ ثمةَ أطلالٌ لكي نبكي عليها.
كيفَ تبكي أمةٌ
أخذوا منها المدامعْ؟

بعدَ هذا الغزلِ السريِّ في أوسلو
خرجنا عاقرِينْ..
وهبونا وطناً أصغرَ من حبّةِ قمحٍ..
وطناً نبلعهُ من غير ماء
كحبوبِ الأسبرينْ!!

بعدَ خمسينَ سنهْ..
نجلسُ الآنَ على أرضِ الخرابْ..
ما لنا مأوى
كآلافِ الكلابْ!!

بعدَ خمسينَ سنهْ
ما وجدنا وطناً نسكنهُ إلا السرابْ..
ليسَ صُلحاً، ذلكَ الصلحُ الذي أدخلَ كالخنجرِ فينا..
إنهُ فعلُ اغتصابْ!!..

ما تفيدُ الهرولهْ؟
ما تفيدُ الهرولهْ؟
عندما يبقى ضميرُ الشعبِ حياً
كفتيلِ القنبلهْ..
لن تساوي كلُّ توقيعاتِ أوسلو..
خردلهْ!!..

كم حلمنا بسلامٍ أخضرٍ..
وهلالٍ أبيضٍ..
وببحرٍ أزرقَ.. وقلوع مرسلهْ..
ووجدنا فجأةً أنفسنا.. في مزبلهْ!!

من تُرى يسألهم عن سلام الجبناءْ؟
لا سلام الأقوياء القادرينْ.
من تُرى يسألهم عن سلام البيع بالتقسيطِ..؟
والتأجير بالتقسيط.. والصفقاتِ..
والتجّار والمستثمرينْ؟
وتُرى يسألهم عن سلام الميتينْ؟
أسكتوا الشارعَ.. واغتالوا جميعَ الأسئلهْ..
وجميعَ السائلينْ...

... وتزوّجنا بلا حبٍّ..
من الأنثى التي ذاتَ يومٍ أكلتْ أولادنا..
مضغتْ أكبادنا..
وأخذناها إلى شهر العسلْ..
وسكرنا ورقصنا..
واستعدنا كلَّ ما نحفظُ من شعر الغزلْ..
ثمَّ أنجبنا، لسوء الحظّ، أولاداً معاقينَ
لهم شكلُ الضفادعْ..
وتشرّدنا على أرصفة الحزنِ،
فلا من بلدٍ نحضنهُ..
أو من ولدْ!!

لم يكن في العرسِ رقصٌ عربيٌّ

أو طعامٌ عربيٌّ
أو غناءُ عربيٌّ
أو حياءُ عربيٌّ
فلقد غابَ عن الزفّةِ أولادُ البلدْ..

كانَ نصفُ المهرِ بالدولار..
كانَ الخاتمُ الماسيُّ بالدولار..
كانتْ أجرةُ المأذونِ بالدولار..
والكعكةُ كانتْ هبةً من أمريكا..
وغطاءُ العرس، والأزهارُ، والشمعُ،
وموسيقا المارينز..
كلها قد صنعتْ في أمريكا!!

وانتهى العرسُ..
ولم تحضرْ فلسطينُ الفرحْ.
بل رأت صورتها مبثوثةً عبرَ كلِّ الأقنيهْ..
ورأتْ دمعتها تعبرُ أمواجَ المحيطْ..
نحوَ شيكاغو.. وجيرسي.. وميامي..
وهيَ مثلَ الطائرِ المذبوحِ تصرخْ:
ليسَ هذا العرسُ عرسيَ..
ليسَ هذا الثوبُ ثوبي..
ليسَ هذا العارُ عاري..
أبداً.. يا أمريكا..
أبداً.. يا أمريكا..
أبداً.. يا أمريكا ..

ملاحظة شخصية:
كلما عدت على قراءة ملحمة الرثاء هذه لا أستطيع أن أغالب دموعي ، ولاسيما المقطع الأخير المتعلق بفلسطين، الذي عزّ نظيره، وانتهى بأمريكا. وهذه التفاتة فائقة ومعروضة بذكاء نزاري.» حسام».

أجزاء من تعليق نجيب محفوظ...

بعد صدور قصيدة« المهرولون»[29]

وصف نجيب محفوظ قصيدة نزار قباني «المهرولون» بأنها قصيدة قوية جداً، وقنابل تفرقع في عملية السلام من دون أن تقدم بديلاً عنها... وأضاف في تصريح لجريدة الحياة الصادرة في لندن بعد نشر القصيدة: « لقد أعجبتني رغم اختلافي السياسي معها».

وأضاف: «إنني لا أنفي إعجابي بها، ومن يشارك نزار قباني موقفه يجد فيها تعبيراً قوياً عن هذا الموقف، لكنه موقف يبدو أضعف من القصيدة بكثير، قصيدة قوية وموقف ضعيف».

وأبدى محفوظ تقديره لما حوته القصيدة ضمناً من نداء للعرب بأن يهبوا، واعتبر ذلك أملاً نتطلع إليه جميعاً، لكنه رأى أن هذا لا يكفي من دون طرح بديل لما يجري في عملية السلام. وأعرب أن اقتناعه بأن يكون البديل هو أن نوقف هذه العملية و«نقعد ساكتين»، ملاحظاً أن نزار قباني لم يدعُ للحرب ولم يقدم أي بديل آخر.

وعندما سُئل عما إذا كان مفروضاً على الشاعر أن يطرح بديلاً، قال: نعم. في مثل هذه المواقف. لابد أن يقدم البديل. لا يكفي أن يهاجم من يقول إنهم يهرولون ويلهثون، ويقّبلون حذاء القتلة، ويفرّطون في كل شيء. فالأهم هو أن يقول لهم ماذا يفعلون. «وقال»أعرف أن هناك من يرفضون السلام خياراً ثالثاً، فماذا يفعل هؤلاء المتهمون بأنهم يهرولون؟ هل يجلسون ساكنين بلا فعل؟ وإذا كان البديل هو الانتظار السلبي فإن الطرف الآخر لاينتظر أحداً وإنما يمضي في ابتلاع الأرض».

---

29 . نشرت قصيدة «المهرولون» في الحياة ، 2 تشرين الأول / اكتوبر 1995

وقال: «لا يوجد سلام بغير تفاوض، وما دام خيار الحرب غير وارد فلا مبرر لهذا الهجوم على المفاوضين العرب الواقعيين والعمليين».. وأضاف «إنهم يريدون الوصول إلى حل، ولو كان بإمكانهم الحصول على أفضل مما أتوا به، ما كانوا قد فرطوا. إنهم يفاوضون في ظروف صعبة، وموقفهم من المفاوضات انعكاس للوضع العربي العام».

وتمنى نجيب محفوظ لو كان الوضع العربي الراهن أقوى مما هو عليه. وقال: « في هذه الحالة فإن نتائج المفاوضات تختلف. لكن من أين نأتي بوضع عربي أفضل الآن؟

وليس من مصلحتنا التوقف لأن الطرف الآخر لن ينتظر. فلسنا في مباراة للكرة حتى نحصل على استراحة ثم نعاود اللعب من جديد. فإذا أخذنا استراحة سيباغتنا الطرف الآخر بتسجيل أهداف في مرمانا».

وذكّر نجيب محفوظ بمبادرة الرئيس المصري الراحل أنور السادات في آخر عقد السبعينيات. والتي كان رحّب بها في حينها على الرغم من رفض معظم المثقفين المصريين والعرب لها. وأضاف «قل في السادات ما شئت، لكنه أخذ المبادرة واستعاد الأرض المصرية المحتلة، ورفع علم فلسطين في مواجهة إسرائيل، وقال للفلسطينيين : تعالوا، لكن ما جوش وماحاربوش... وكانت الشروط المطروحة عليهم آنذاك أفضل منها الآن عشر مرات. فقد قبلت إسرائيل وقتها بالحكم الذاتي إلى جانب إعادة سيناء لمصر».

لكنه رأى أن هذا لا يبرر الهجوم على القيادة الفلسطينية الآن عندما أدركت أنه لا بديل عن التفاوض، ولا الهجوم على القادة العرب الذين يساندونها. وقال: «إنهم يسعون لحل المشكلة بقدر ما يستطيعون، وفي حدود ما تسمح به ظروف الواقع، ولا جدوى من أن نشبعهم تقريعاً ونقول لهم: أضعتم الحياء، أضعتم غرناطة وإشبيلية وأنطاكية، وفرطتم في كل شيء». وأوضح أن هؤلاء الموصوفين بالمهرولين يحاولون إنقاذ ما يمكن إنقاذه لأننا أخصائيون في إضاعة الفرص. ومع ذلك كرر محفوظ إعجابه بالقصيدة باعتبارها تعبيراً عن موقف صادق يحترمه على الرغم من اختلافه معه وقال: «إن نزار قباني مخلص في موقفه ولا يقول هذا الكلام تزييفاً. إنه رأيه وهو مقتنع به. وله كل الحق في ذلك، وهناك

من يؤيدون هذا الرأي في كل البلاد العربية، ومن يرفضون السلام على طول الخط حتى إذا حققنا منه مكسباً. وهذا حقهم»[30].

«الشاعر يصنع القصيدة .. ولا يصنع القرار». لنزار قباني

الأستاذ نجيب محفوظ إنسان رقيق كنسمة الصيف، وحريري في صياغة كلماته ورسوليٌ في سلوكه على الورق وسلوكه في الحياة.

إنه رجل اللا عنف الذي يمسك العصا من وسطها... ولا يسمح لنفسه بأن يجرح حمامة أو يدوس على نملة أو يغامر أو يسافر أو يغادر زاويته التاريخية في حي سيدنا الحسين.

هو رجل السلام والسلامة ولا يُعرف عنه أنه تشاجر ذات يوم مع أحد... أو تعاركٍ مع رجل بوليس أو وقف في وجه حاكم أو أمير أو صاحب سلطة.. إنه دائماً يلبس قفازات الحرير في خطابه «كحكومة الظل» في النظام البريطاني.

هذا الموقف السكوني الكلاسيكي في طبيعة أستاذنا الكبير هو الذي جعله ينتفض كعصفور عندما قرأ قصيدتي الأخيرة «المهرولون»، فهو لم يتعوّد خلال تاريخه الطويل على قراءة القصائد المجنونة التي تفرش عباءتها على الأرض وتصرخ كالقطط المتوحشة في ليل الانحطاط العربي، غير مكترثة بالفضيحة وبما يقوله الناس عن ظهورها في الشارع عارية أو نصف عارية...

فليعذرني عميد الرواية العربية إذا جرحت عذريته الثقافية وكسرت عاداته اليومية وقلبت فنجان القهوة عن الطاولة التي يجلس عليها مع أصدقائه، فالقصيدة ليس لها عادات يومية تحكمها أو نظام روتيني تخضع له. إنها امرأة عصبِية وشرسة تقول ما تريده بأظافرها وأسنانها. القصيدة ذئب متحفز ليلاً ونهاراً ومواجهة بالأبيض مع كل اللصوص والمرتزقة وقراصنة السياسة وتجار الهيكل.

---

30. ملخص أجوبة نجيب محفوظ لمدير مكتب الحياة في القاهرة، نشرتها روز اليوسف عن الحياة بتاريخ 1995/10/16، وكان قد نشر هذا الحوار كاملاً، الذي كان مدوّياً بدوره، في «الحياة»، عدد 5 / 10 / 1995 تحت عنوان: «نجيب محفوظ رداً على نزار قباني: قصيدة قوية.. وموقف ضعيف».

أستاذنا نجيب محفوظ قمة روائية لا يجادل فيها أحد، ولكن نظرته إلى الشعر نظرة ساذجة وملتبسة وتحتاج إلى بعض التصحيح. ففي تعليقه على قصيدتي خلط الروائي الكبير خلطا عجيباً بين الشعرّي وبين السياسي، بين القصيدة وبين الموقف، فامتدح القصيدة جمالياً وهجاها أيديولوجياً.

إنني لا أناقش الأستاذ نجيب محفوظ في عقيدته وقناعاته السياسية، لكنني أقول إن الشعر دولة ليبرالية لا سلطان فيها إلا الجمال والعدالة والحرية، وليس من وظيفة للشعر سوى أن يكون شعراً وأن يكون صادقاً مع الناس ومع نفسه ومع الحقيقة.

هذا هو موقف الشعر مما يجري على المسرح العربي، فإذا كان الأستاذ نجيب محفوظ يرى موقفي «ضعيفا» ويطالبني بأن أصفق لمسرحية اللا معقول التي يعرضونها علينا بقوة السلاح وقوة الدولار فإني أعتذر عن هذه المهمة المستحيلة... ولكن ماذا أفعل إذا كان قدره أن يكون من «حزب الحمائم» وقدري أن أكون من «حزب الصقور»؟

ماذا أفعل إذا كان أستاذنا نجيب محفوظ مصنوعاً من القطيفة.. وكنت مصنوعاً من النار والبارود؟

ماذا أفعل إذا كانت الرواية عنده جلسة ثقافية هادئة في «مقهى الفيشاوي» وكانت القصيدة عندي هجمة انتحارية على القبح والانحطاط والظلام والتلوث السياسي والقومي؟

ربما كان الخطاب الروائي يختلف في طبيعته وأدواته وتقنيته عن الخطاب الشعري، فالروائي يجمع عناصر روايته ويرتبها ويدرس سيكولوجية أبطاله كما يفعل الأكاديميون والباحثون الذين يشتغلون في مختبراتهم بعقل بارد دون أن يشعروا بضغط الزمن عليهم.

أما الشاعر فهو يشتغل بمادة سريعة الانفجار لا يمكنه أن يؤجل التعامل معها إلى فترات طويلة وإلا انفجرت بين يديه... الشعر برق لا عمر له، أما الرواية فورشة تفتح أبوابها لمدة 24 ساعة. ولأن الشعر يتصرف بطفولة وتلقائية لا يمكننا أن نطلب منه أن يكون حكيماً أو واعظاً أو خطيباً أو معلم مدرسة.. ليس من وظيفة القصيدة أن تقترح الحلول وتجد البدائل وتكتب الراشتّات للمرضى والمعاقين. الشعراء ليسوا جنرالات ولا يعطون التعليمات من غرفة العمليات ولا يعلنون الحرب ولا يوقفونها. ولو كان مسموحاً للشعراء

أن يكونوا في مركز اتخاذ القرار لما امتلأ العالم بالمجازر العرقية والعنصرية ولما حوّلت قنبلة هيروشيما 250 ألف في ثانية واحدة إلى شوربة بشرية تتبخر.

والذي يدعو للدهشة في كلام الأستاذ نجيب محفوظ هو مطالبتي بتقديم بديل لعملية السلام المتعثرة كأنني السكرتير العام للأمم المتحدة وعضو دائم من أعضاء مجلس الامن أو كأني المسؤول عن صياغة النظام العالمي الجديد!

إن مطالبة الشاعر بتقديم البدائل تعطيه سلطةً تتجاوز سلطته البشرية وتجعله مركزاً من مراكز القوى وشريكاً في اتخاذ القرار السياسي. وهذا يدخل في باب المحرمات في أنظمتنا السياسية الأوتوقراطية التي لا مكان فيها لتشريك الآخر أو للفكر الآخر أو للرأي الآخر.

الشاعر في بلادنا هو «صفارة إنذار» تنطلق في ساعات الخطر وتطلب من الناس أن ينزلوا إلى الملاجئ ويلبسوا الأقنعة الواقية من الخوف والقمع والدكتاتورية!!.

الشاعر في تاريخنا هو «زرقاء اليمامة» التي حذّرت قومها من الخطر الذي يقترب من خيامهم وأخبرتهم بتفاصيل رؤيتها ولكنهم لم يصدقوها.

ولو أن الرئيس أنور السادات قرأ قصيدة شاعر مصر الرائي والمستكشف أمل دنقل «لا تصالح» لما دخلنا في ذلك النفق المظلم الذي لا نزال نتخبط فيه إلى اليوم. لقد قدم الشاعر أمل دنقل إذَنْ للرئيس المصري نبوءته واجتهاده الشعري والقومي، ولكن صوته ضاع في ضجيج محركات الطائرة الرئاسية المسافرة إلى القدس. هذه هي محنة القصيدة التي لا يريد أن يسمع أحد شهادتها ولو قدّمت ألف دليل وألف بديل. فهل يتذكر الأستاذ الكبير ضراعة أمل دنقل للرئيس أنور السادات كي «لا يصالح». ولكن صرخة الشاعر تناثرت فوق مياه النيل. ومات أمل دنقل على سرير مرضه محبطاً ويائساً ومقهوراً.

لا يحق للأستاذ نجيب محفوظ أن يعيّن نفسه قاضياً ويصدر حكماً متسرعاً على قصيدة تتعارض مع خطه السياسي، فما يعتبره هو «موقفاً ضعيفاً» أعتبره أنا «موقفاً شجاعاً». وما أعتبره أنا موقفاً انبطاحياً يعتبره هو موقفاً واقعياً براغماتياً، وهذا يستدعي العودة قليلاً إلى أواخر السبعينات حين هبطت طائرة الرئيس السادات في مطار بن غريون في تل أبيب، وتقدم فاتحاً ذراعيه لكل الجنرالات الذي أهرقوا دم مصر وداسوا ترابها.

وابتداء من هذه اللحظة التي جعلت التاريخ يقف على رأسه، ظهر طفح ثقافي على جلد بعض المثقفين المصريين اسمه «كامب ديفيد»، وكان أستاذنا نجيب محفوظ أحد المبدعين الكبار الذين ظهرت على كتاباتهم أعراض هذا الطفح.. كان الأستاذ نجيب محفوظ معجباً بعبقرية أنور السادات ومقتنعاً بكراماته ونبوءاته ورؤيته «الرسولية» للمستقبل. لذلك فإنني أعتبر تعليقه على قصيدتي نوعاً من «عودة الروح» لعصر السادات وفكره ونهجه السياسي.

وعلى ضوء ما تقدم، فإن المسافة الأيديولوجية التي تفصلني عن الأستاذ نجيب محفوظ لا يمكن ردمها. فهو تلميذ «المدرسة السادية» التي كانت تريد نصراً سينمائياً وتلفزيونياً واستعراضياً، ولو كان هذا النصر على حساب تاريخ مصر العربي وبطولات الجيش المصري الخرافية في حرب أكتوبر... **وأنا تلميذ «المدرسة الناصرية» بكل عنفوانها وجنونها واقتحاماتها القومية وانتصاراتها وهزائمها وأعراسها وأحزانها.**

إنهما موقفان منفرجان ونقطتان لا تلتقيان أبداً، فأصابع الأستاذ نجيب محفوظ منقوعة في الماء وأصابعي تتقلب فوق النار، ولكنني لا أصرخ ولا يمكنني كشاعر أن أكون ضد السلام. فالشاعر بطبيعة تكوينه النفسي والفكري والإنساني عضو مؤسس في حزب السلام. إذا لا شعر يُكتب في ظل الموت والإبادة والخراب.

لكن ما يطرحونه علينا ليس سلاماً... بل «**مصاصة من الكاوتشوك**» لا حليب فيها.. وزجاجة من النبيذ لا قعر لها.. ورسالة حب مكتوبة بالحبر السري. ما يعرضونه علينا سيأخذ ما فوقنا وما تحتنا... ويتركنا على الحصيرة. فالمستعمرات في خاصرتنا، والمسجونون في سجونهم والمنفيون في منافيهم، وانتقال المواطنين من أرض فلسطينية إلى أرض فلسطينية تحت رحمتهم، والخليل مؤجلة.. والقدس مؤجلة.. وحريتنا وأعمارنا وأحلامنا كلها مؤجلة، فماذا بقي لنا من فلسطين في ظل هذا السلام البائس؟

إذا كان أنبياؤنا ممنوعين من قراءة كتبهم المقدسة، وشعراؤنا ممنوعين من تلاوة شعرهم على ارض فلسطين، وفلاحونا ممنوعين من الاقتراب من شجرة برتقال كانوا زرعوها قبل خمسين عاماً، فماذا بقي لنا من فلسطين؟ إذا كان محمود درويش يقول في أول حوار أجري معه في غزة أنه «عاد ولم

يعد.. ووصل ولم يصل.. وأن منفاه لم ينته بعد.. وأن على بلاغة اللغة أن تتواضع قليلاً أمام هذا البؤس!!»[31].

هذه هي أحاسيسي أمام هذا الصلح الكاريكاتوري الذي يبشر به الأستاذ نجيب محفوظ ويدعونا إلى القبض عليه قبل أن يُفلت من يدنا!!

وأنا لا أعتقد أننا سوف نخسر كثيراً إذا قاومنا مثل هذا الصلح المعبأ بكل إمكانيات الحرب. وما دمنا لن نأخذ شيئاً من إسرائيل لا بالحق ولا بالباطل، لأنها مصممة على أن تصالحنا وتستعمرنا في الوقت ذاته، فماذا نخسر إذا كسرنا الدف وتوقفنا عن الغناء؟

إن إسرائيل مبتهجة أساساً لمشروع سلام مع العرب لا بشروطها هي... وضمن مشروعها التوراتي القائم على «إسرائيل كبرى» تبتلع فيه كل غصن اخضر من النيل إلى الفرات.

وأريد أن أذكر أديبنا الكبير أن إسرائيل غير سعيدة بصلحها مع مصر، وهي نادمة كثيراً على إعادة سيناء إلى السيادة المصرية لأن معدة إسرائيل لم تتعود على إرجاء أي طعام دخل إليها، ولذلك فهي تسمي سلامها مع مصر «سلاماً بارداً».

فشكراً للرئيس العظيم جمال عبد الناصر الذي زرع في جسد الشعب المصري هذه المناعة القومية النادرة.

وبعد، فشكراً لأستاذنا الروائي الكبير نجيب محفوظ الذي قرأ قصيدتي «المهرولون» فأعجبته شعرياً ولم تعجبه أيديولوجياً وموقفاً، وإذا كان الخطاب الشعري قد هزّ أعماقه فهذا دليل على أن حساسيته الشعرية لا تزال بخير، وقلبه الكبير لا يزال يفرح بالتماع البروق وسقوط الأمطار. أما مواقفنا الأيديولوجية المتصادمة في قضية السلام فهي بسيطة وهامشية ولا تفسد للود قضية. هو له رؤيته واجتهاده وأنا لي رؤيتي واجتهادي. هو يرى خشب المسرح بعين الروائي المهتم بالأضواء والديكور وحركة الممثلين، وأنا أرى المسرح بعين الشاعر الذي يريد أن يعرف ما يجري خلف الكوابيس ومن يدير الحوار ومن هو كاتب السيناريو وماذا يجري بين صفوف المتفرجين الذين

---

31 . كانت تربط الشاعرين علاقة وطيدة ، وكان محمود يشيد دائماً بإبداع نزار .

يشعرون بالإحباط والخديعة وبأن التمثيلية كلها «أوانطا با أونطا».

هو على يقين بأن الرواية حقيقية وأنا على يقين بأن الرواية نوع من الفانتازيا السياسية التي لا تستهوي أحداً برغم فخامة التمويل وكثرة الإعلانات ووجاهة المدعوين إلى حديقة البيت الأبيض!!!

لندن تشرين الأول 1995

ويذكر مدير مكتب الحياة في القاهرة «في وقتها»، وحيد عبد الحميد، مجدداً هذا الموضوع بمناسبة الذكرى العاشرة لوفاة نزار[32]:

«ولكن امتناع محفوظ عن الرد على الرد لم يحل دون توسع نطاق الحوار، الذي شارك فيه على صفحات «الحياة»، فقط جهاد الخازن ومصطفي الفقي وفيصل جلول وسعد الدين إبراهيم والعماد مصطفى طلاس وعبد المنعم سعيد وعبد الله بلقزيز وشاكر عبد الحميد وعبد العليم محمد وعبد الحسن الأمين، فضلاً عن عشرات آخرين في صحف عربية عدة».

32 . جريدة أوان «الإلكترونية»، 2008/4/27 في موقع المنتديات العامة لكلية التربية www.ed-uni.net

3- نزار وجمال عبد الناصر وقصيدة ممنوعة

قصيدة «هوامش على دفتر النكسة»

-1-

أنعي لكم، يا أصدقائي، اللغةَ القديمه

والكتبَ القديمه

أنعي لكم..

كلامَنا المثقوبَ، كالأحذيةِ القديمه..

ومفرداتِ العهرِ، والهجاءِ، والشتيمه

أنعي لكمَ.. أنعي لكم

نهايةَ الفكرِ الذي قادَ إلى الهزيمه

-2-

مالحةٌ في فمنا القصائد

مالحةٌ ضفائرُ النساء

والليلُ، والأستارُ، والمقاعد

مالحةٌ أمامنا الأشياء

-3-

يا وطني الحزين

حوّلتَني بلحظة

من شاعر يكتبُ الحبَّ والحنين

لشاعرٍ يكتبُ بالسكين

-4-

لأنَّ ما نحسّهُ أكبرُ من أوراقنا

لا بدَّ أن نخجلَ من أشعارنا

-5-

إذا خسرنا الحربَ لا غرابةٌ

لأننا ندخُلها..
بكلِّ ما يملكُ الشرقيُّ من مواهبِ الخطابهْ
بالعنترياتِ التي ما قتلت ذبابهْ
لأننا ندخلَها..
بمنطقِ الطبلةِ والربابهْ
-6-
السرُّ في مأساتنا
صراخنا أضخمُ من أصواتنا
وسيفُنا أطولُ من قاماتنا
-7-
خلاصةُ القضيّهْ
توجزُ في عبارهْ
لقد لبسنا قشرةَ الحضارهْ
والروحُ جاهليّهْ...
-8-
بالنّاي والمزمار..
لا يحدُثُ انتصار
-9-
كلّفَنا ارتجالُنا
خمسينَ ألفَ خيمةٍ جديدهْ
-10-
لا تلعنوا السماءْ
إذا تخلّت عنكمُ..
لا تلعنوا الظروفْ
فالله يؤتي النصرَ من يشاءْ
وليس حدّاداً لديكم.. يصنعُ السيوفْ

- 11 -

يوجعُني أن أسمعَ الأنباءَ في الصباحْ

يوجعُني.. أن أسمعَ النُّباحْ..

- 12 -

ما دخلَ اليهودُ من حدودِنا

وإنما..

تسرّبوا كالنملِ.. من عيوبِنا

- 13 -

خمسةُ آلاف سنهْ..

ونحنُ في السِرداب

ذقوننا طويلةٌ

نقودنا مجهولةٌ

عيوننا مرافئُ الذبابْ

يا أصدقائي:

جرّبوا أن تكسروا الأبوابْ

أن تغسلوا أفكاركم، وتغسلوا الأثوابْ

يا أصدقائي:

جرّبوا أن تقرؤوا كتابْ..

أن تكتبوا كتابْ

أن تزرعوا الحروفَ، والرُّمانَ، والأعنابْ

أن تبحروا إلى بلادِ الثلج والضبابْ

فالناسُ يجهلونكم.. في خَارج السردابْ

الناسُ يحسبونكم نوعاً من الذئابْ...

- 14 -

جلودُنا ميتةُ الإحساسْ

أرواحُنا تشكو منَ الإفلاسْ

أيامنا تدورُ بين الزارِ، والشطرنجِ، والنعاسْ

هل نحنُ «خيرُ أمةٍ قد أخرجت للناسْ» ؟...

- 15 -

كانَ بوسعِ نفطنا الدافقِ بالصحاري
أن يستحيلَ خنجراً..
من لهبٍ ونارِ..
لكنهُ..
واخجلةَ الأشراف من قريش
وخجلةَ الأحرارِ مَن أوسٍ ومَن نزارِ
يراقُ تحتَ أرجلِ الجواري...

- 16 -

نركضُ في الشوارع
نحملُ تحتَ إبطنا الحبالا..
نمارسُ السَحْلَ بلا تبصُّر
نحطّمُ الزجاجَ والأقفالا..
نمدحُ كالضفادع
نشتمُ كالضفادعَ
نجعلُ من أقزامنَا أبطالا..
نجعلُ من أشرافنا أنذالا..
نرتجلُ البطولةَ ارتجالا..
نقعدُ في الجوامعِ..
تنابلاً.. كُسالى
نشطرُ الأبياتَ، أو نؤلّفُ الأمثالا..
ونشحذُ النصرَ على عدوِّنا..
من عندهِ تعالى...

- 17 -

لو أحدٌ يمنحني الأمانْ..
لو كنتُ أستطيعُ أن أقابلَ السلطانْ
قلتُ لهُ: يا سيّدي السلطانْ

كلابكَ المفترساتُ مزّقت ردائي
ومخبروكَ دائماً ورائي..
عيونهم ورائي..
أنوفهم ورائي..
أقدامهم ورائي..
كالقدرِ المحتوم، كالقضاءِ
يستجوبونَ زوجَتي
ويكتبونَ عندهم..
أسماءَ أصدقائي..
يا حضرةَ السلطانْ
لأنني اقتربتُ من أسواركَ الصمَّاءِ
لأنني..
حاولتُ أن أكشفَ عن حزني.. وعن بلائي
ضُربتُ بالحذاء..
أرغمني جندُكَ أن آكُلَ من حذائي
يا سيّدي..
يا سيّدي السلطانْ
لقد خسرتَ الحربَ مرتينْ
لأنَّ نصفَ شعبنا.. ليسَ لهُ لسانْ
ما قيمةُ الشعبِ الذي ليسَ لهُ لسانْ؟
لأنَّ نصفَ شعبنا..
محاصرٌ كالنملِ والجرذانْ..
في داخلِ الجدرانْ..
لو أحدٌ يمنحُني الأمانْ
من عسكرِ السلطانْ..
قُلتُ لهُ: لقد خسرتَ الحربَ مرتينْ..
لأنكَ انفصلتَ عن قضيةِ الإنسانْ..
- 18 -

لو أننا لم ندفنِ الوحدةَ في الترابْ
لو لم نمزّقْ جسمَها الطَّريَّ بالحرابْ
لو بقيتْ في داخلِ العيونِ والأهدابْ
لما استباحتْ لحمَنا الكلابْ..

- 19 -

نريدُ جيلاً غاضباً..
نريدُ جيلاً يفلحُ الآفاقْ
وينكشُ التاريخَ من جذورهِ..
وينكشُ الفكرَ من الأعماقْ
نريدُ جيلاً قادماً..
مختلفَ الملامحْ..
لا يغفرُ الأخطاءَ.. لا يسامحْ..
لا ينحني..
لا يعرفُ النفاقْ..
نريدُ جيلاً..
رائداً..
عملاقْ..

- 20 -

يا أيُّها الأطفالْ..
من المحيطِ للخليج، أنتمُ سنابلُ الآمالْ
وأنتمُ الجيلُ الذي سيكسرُ الأغلالْ
ويقتلُ الأفيونَ في رؤوسنا..
ويقتلُ الخيالْ..
يا أيُّها الأطفالُ أنتمْ –بعدُ– طيّبونْ
وطاهرونَ، كالندى والثلجِ، طاهرونْ
لا تقرؤوا عن جيلنا المهزومِ يا أطفالْ
فنحنُ خائبونْ..
ونحنُ، مثلَ قشرةِ البطيخِ، تافهونْ

ونحنُ منخورونَ.. منخورونَ.. كالنعالْ
لا تقرؤوا أخبارَنا
لا تقتفوا آثارنا
لا تقبلوا أفكارنا
فنحنُ جيلُ القيء، والزُّهريِّ، والسعالْ
ونحنُ جيلُ الدجَلِ، والرقصِ على الحبالْ
يا أيها الأطفالْ:
يا مطرَ الربيع.. يا سنابلَ الآمالْ
أنتمْ بذورُ الخَصبِ في حياتنا العقيمهْ
وأنتمُ الجيلُ الذي سيهزمُ الهزيمهْ...

نص الرسالة

سيادة الرَئيس جمال عبد الناصر:

في هذه الأيام التي أصبحت فيها أعصابنا رماداً، وطَوَّقتنا الأحزان من كُلِّ مكان، يكتب إليك شاعر عربي يتعرَّضِ اليوم من قِبَلِ السلطات الرّسميَّة في الجمهورية العربية المتحدة لنوع من الظّلم لا مثيل لَه في تاريخ الظّلم.

وتفصيل القصَّة أنّني نشرتُ في أعقاب نكسة الخامس من حزيران قصيدة عنوانها «**هوامش على دفتر النَكسة**» أودعتُها خلاصة ألمي وتمزّقي، وكشفتُ فيها عن مناطق الوجع في جسد أمَّتي العربيّة، لاقتناعي أنّ ما انتهينا إليه لا يُعالَج بالتواري والهروب، وإنّما بالمواجهة الكاملة لعيوبنا وسيّئاتنا، وإذا كانت صرختي حادّة وجارحة، وأنا أعترف سلفاً بأنّها كذلك، فلأنّ الصّرخة تكون بحجم الطّعنة، ولأنَّ النّزيف بمساحة الجرح.

مَنْ منا يا سيادة الرّئيس لم يصرخ بعد 5 حزيران؟
مَنْ من لم يخدش السماء بأظافره؟
مَنْ من لم يكره نفسه وثيابه وظلّه على الأرض؟

إنّ قصيدتي كانت محاولة لإعادة تقديم أنفسنا كما نحن، بعيداً عن التّبجُّح والمغالاة والانفعال، وبالتالي؛ كانت محاولة لبناء فكر عربي جديد يختلف

بملامحه وتكوينه عن ملامح فكر ما قبل 5 حزيران.

إنّني لم أقل أكثر ممّا قاله غيري، ولم أغضب أكثر ممّا غضب غيري، وكلّ ما فعلتُهُ أنّني صغتُ بأسلوب شعريٍّ ما صاغه غيري بأسلوب سياسي أو صحفي.

وإذا سمحتَ لي يا سيادة الرّئيس أنْ أكون أكثر وضوحاً وصراحة، قلتُ إنّني لم أتجاوز أفكارك في النّقد الذّاتي، يوم وقفتَ بعد النكسة تكشف بشرف وأمانة حساب المعركة، وتعطي ما لقيصر لقيصر وما لله لله.

إنّي لم أخترع شيئاً من عندي، فأخطاء العرب النّفسيّة والسّياسيّة والسّلوكية مكشوفة كالكتاب المفتوح.

وماذا تكون قيمة الأدب يوم يجبن عن مواجهة الحياة بوجهها الأبيض ووجهها الأسود معاً؟ ومَنْ يكون الشّاعر يوم يتحوَّل إلى مُهرّجٍ يمسح أذيال المجتمع وينافق له: لذلك أوجعَني يا سيادة الرّئيس أنْ تمنع قصيدتي من دخول مصر، وأنْ يُفرض حصار رسميٌّ على اسمي وشعري في إذاعة الجمهوريّة العربيّة المتّحدة وصحافتها. والقضيَّة ليست قضيَّة مصادرة قصيدة أو مصادرة شاعر. لكنَّ القضيَّة أعمق وأبعد.

القضيَّة هي أنْ نُحدِّد موقفنا من الفكر العربي. كيف نريده؟ حُرّاً أم نصف حُرٍّ؟ شجاعاً أم جباناً؟ نبيّاً أم مُهرِّجاً؟

القضيَّة هي أنْ يسقط أي شاعر تحت حوافر الفكر الغوغائي لأنَّه تفوَّه بالحقيقة.

والقضيَّة أخيراً هي ما إذا كان تاريخ 5 حزيران سيكون تاريخاً نُولد فيه من جديد، بجلود جديدة، وأفكار جديدة، ومنطق جديد.

قصيدتي أمامكَ يا سيادة الرئيس، أرجو أن تقرأها بكُلِّ ما عرفناه عنك من سعة أفق، وبُعْد رؤية، ولسوف تقتنع، برغم ملوحة الكلمات ومرارتها، بأنّي كنتُ أنقّل عن الواقع بأمانة وصدق، وأرسم صورة طبق الأصل، لوجوهنا الشّاحبة والمرهقة.

لم يكن بإمكاني وبلادي تحترق، الوقوف على الحياد، فحياد الأدب موتٌ له.

لم يكن بوسعي أنْ أقف أمام جسد أمَّتي المريض، أعالجه بالأدعية والحجابات والضّراعات. فالذي يحبُّ أمَّته، يا سيادة الرّئيس، يُطَهِّرُ جراحها بالكحول،

ويكوي – إذا لزم الأمر – المناطقَ المصابة بالنار.

سيادة الرّئيس: إنّني أشكو لك الموقف العدائي الذي تقفه مني السّلطات الرّسميَّة في مصر، متأثّرةً بأقوال بعض مرتزقة الكلمة والمتاجرين بها. وأنا لا أطلب شيئاً أكثر من سماع صوتي، فمن أبسط قواعد العدالة أنْ يُسمَحَ للكاتب أن يُفَسِّرَ ما كَتَبَهُ وللمصلوب أنْ يُسأل عن سبب صلبه.

لا أطالب يا سيادة الرّئيس إلا بحريَّة الحوار، فأنا أشتَمُ في مصر، ولا أحد يعرف لماذا أشتَمُ، وأنا أطعن بوطنيتي وكرامتي لأنّي كتبتُ قصيدة، ولا أحد قرأ حرفاً من هذه القصيدة.

لقد دخلتْ قصيدتي كُلَّ مدينة عربيَّة وأثارت جدلاً كبيراً بين المثقّفين العرب إيجاباً وسَلْباً، فلماذا أحرَم من هذا الحقّ في مصر وحدها؟ ومتى كانت مصر تُغلق أبوابها في وجه الكلمة وتضيق بها.

يا سيدي الرّئيس ..

لا أريد أنْ أصَدّق أن مثلك يعاقب النازف على نزيفه. والمجروح على جراحه، ويسمح باضطهاد شاعر عربي أراد أنْ يكون شريفاً وشجاعاً في مواجهة نفسه وأمَّته، فَدَفَعَ ثمن صدقه وشجاعته.

يا سيدي الرئيس ..

لا أصَدِّق أنْ يحدث هذا في عصرك..

بيروت في 30 تشرين الأول «أكتوبر» 1967 م.

نزار قباني

قرار الرئيس

ولم يطل صمت عبد الناصر، ولم تمنعه مشكلاته الكبيرة، وهمومه التي تجاوزت هموم البشر، من الاهتمام برسالتي، فقد روى لي أحد المقربين منه، أنه وضع خطوطاً تحت أكثر مقاطع الرسالة وكتب بخط يده التعليمات الحاسمة التالية:

لم أقرأ قصيدة نزار قباني إلا في النسخة التي أرسلها إليّ. وأنا لا أجد أي وجه من وجوه الاعتراض عليها.

تُلغى كل التدابير التي قد تكون اتخذت خطأ بحق الشاعر ومؤلفاته، ويُطلب إلى وزارة الإعلام السماح بتداول القصيدة.

يدخل الشاعر نزار قباني إلى الجمهورية العربية المتحدة متى أراد، ويكرّم فيها كما كان في السابق.

التوقيع : **جمال عبد الناصر**

بعد كلمات جمال عبد الناصر، تغيّر الطقس وتغير اتجاه الرياح.. وتفرق المشاغبون وانكسرت طبولهم، ودخلت «الهوامش» إلى مصر بحماية عبد الناصر، ورجعتُ أنا إلى القاهرة مرة بعد مرة.. لأجد شمس مصر أشد بريقاً، ونيلها أكثر اتساعاً، ونجومها أكثر عدداً.

إنني أروي هذه الحادثة التي لا يعرفها إلا القلة من أصدقائي، لأنها تتجاوز دائرة الأسرار الخصوصية، لتأخذ شكل القضية العامة[33].

---

33 . نشرت في كتاب نزار قباني : قصتي مع الشعر ، منشورات نزار قباني ، يناير 2000 : 236-243

4 - مقاطع من مقابلة مع د. رياض نعسان آغا[34]

«مختارات»

رياض:

هل دمشق هي الحارة التي ولدت فيها أم هي الفسحة التاريخية الجغرافية؟

نزار:

اعتقد أن دمشق اسم كبير جداً وأكبر من الأسماء جميعاً اسم حضاري كبير، اسم ثقافي كبير، اسم تراثي كبير. هي في هذا المعنى تتجاوز حدود اسمها لتصبح الكون كله بالنسبة لي، كما كانت روما حين نتكلم عن روما نتحدث عن الامبرطورية الرومانية كلها، حينما نتحدث عن أثينا نتحدث عن حضارة الإغريق جميعاً. إذن فدمشق هي عاصمة القلب وعاصمة التاريخ وعاصمة البطولات. لذلك أرجو ألا تؤخذ دمشق بمعناها الضيق فهي أكبر مني ومنك ومن اللغة ومن كل شيء، وأود أن أقول كلمة أخرى وهي شهادة أخرى أعلنها على شاشة التلفزيون العربي السوري، أقول إنني مجنون دمشق لا مجنون ليلى، ففي العالم العربي مليون ليلى ولكن ليس هناك إلا دمشق واحدة.

هذا عبرت عنه كتابةً وأردت الآن أن أعبر صوتاً وصورةً لأقنع الذين يتحدثون عن الإقليمية. ليس هناك إقليمية، دمشق هي الشمس وكل ما حولها كواكب تدور حولها.

رياض:

كل الأقاصيص ينتهي فيها الحبيبان إلى الزواج، أنت قلت الإبحار دون

---

34 . لقطات من حوارٍ تلفازي احترافي دقيق كشف عن صميم تفكير نزار في دمشق عام 1988. ننشرها بإذن من د. رياض نعسان آغا.

سفينة إذ جعلته غارقاً في اليم وحرمته من الوصول!!

نزار:

كنت أخاف دائماً على الحب أن يتحول إلى مؤسسة من المؤسسات والى عادة من العادات وكنت أخاف على المرأة أن تتحول إلى سمكة مجمدة في الثلاجة، كنت دائماً أبحث عن المرأة البرق.. المرأة المستحيلة.. المرأة التي تأتي ولا تأتي، وكنت ابحث عن تشكيلات امرأة.. عن التشكيلات اللونية لامرأة غير قابلة للامتلاك ولا للاستهلاك.. ولا أزال أومن بأن امتلاك المرأة يحولها إلى سلعة سواء بالزواج أو بغيره، أنا أومن أن تقوم العلاقة بين الرجل والمرأة على أساس الحب، هناك ناس يرفضون قولي، ولكن أنا أتحدث بلسان الشاعر، وقد سألتني عن تعريف الشعر، قلت لك إن الشعر هو حالة استثنائية ينفصل بها الإنسان عن جاذبية الأرض، حالة من الوجد والتخطي والصوفية يصبح فيها إنسانان شخصاً واحداً.

رياض:

إن نزار قباني شاعر أكثر معاصرةً من أي شاعر عربي آخر، وليعذرني الشعراء والنقاد إذا قلت هذا لأن نزار قباني الأكثر تفاعلاً مع معطيات القرن العشرين، أين سر هذه المعاصرة، أهي في الألفاظ! في اللغة الشعرية! أم في جرأتك على اقتحام موضوعات الإنسان المعاصر كمسألة الجنس، الكبت الاجتماعي أو العاطفي، أين المعاصرة؟ هل هي كل هذا؟

نزار:

أنا لست شاعراً سرّياً، ربما هذا سرّ انتشاري، أنا ما كتبت قصائد وأخفيتها في جيوبي. دائماً كانت قصائدي مطروحة أمام الناس أنا أعتقد النقطة الأولى الهامة هي قضية اللغة، تحويل اللغة من لغة مرعبة لغة أكاديمية قاموسية لا يستطيع أن يفسرها خمسة أشخاص إلى نقد متداول بين أيدي الناس ، ثم أنا لم أكن شاعر الازدواجية ولا الباطنية، كُنت دائما الشاعر الذي ليس له وجهان لذلك يصدقونني والناس يصدقون الصدق، الجمهور

عنده ذكاء، لذلك الشرط الأساسي لكل شعر يكتب هو أن يكون ابن زمنه ابن بيئته ....، أشترط أن اللغة هي لغة الناس دون ابتذال. دائما ناديت باللغة الثالثة بين الأكاديمية وبين لغة الناس العاديين، أسميها لغة المثقفين العرب التي أتحدث بها الآن، أولاً قضية اللغة، ثانياً قضية الصدق والشجاعة، ثالثاً قضية المعاصرة...

رياض:

التراث والمعاصرة والإبهام والغموض... أنت ترفض الإبهام وترفض الغموض، وأنت شاعر لا ترفض التراث ولكن تتمثله في إطار معاصر... كيف ترسم صورتك الشعرية من أين تأتي بهذه الألوان ... أهو التداعي أم أنت شاعر التأمل؟

نزار:

الصورة الشعرية صورة يجب أن تكون صورة مدروسة ونظامية وخاضعة للرقابة. أنا لا أؤمن بالتداعيات ولا أؤمن بالكتابة الميكانيكية كأن نقول مثلاً إن الشمس كانت شاحبة الوجه لأنها مصابة بداء اليرقان أو أن القمر كان ينثر نخاعه الشوكي على شوارع المدينة، هذه تعابير أو صور أتصور أن ليس لها منطق. أنا مع الصورة المنطقية رغم كوني شاعراً لا أومن بالمجانية في مثل هذه الأشياء، هناك شاعر نقرأه الآن بلا منطق، الصورة لها منطق مثل اللغة، أنا أرفض اللغة السائبة أرفض الصورة السائبة المجانية الاعتباطية التي لا يمكن لأحد أن يستوعبها، أنا أعتبر الشعر مسؤولية أقف أمام القصيدة موقف المسؤول، لا أنشر قصيدة إلا بعد أن أدققها، أنا أتعذب أمام ورقة الكتابة. بعد أربعين سنة من الشعر لا أحب أن يشوه أحد تاريخي، حين أتكلم الشعر عندي نظام لا فوضى، لغة حقيقية لا لغة عشوائية، الصورة عندما أقول « **يا شعرها على يدي شلال ضوء أسود**» هذه صورة مشغولة ومرت على الرقابة ... ما فيها مجانية ولا اعتباطية ولا فَلَتان ، نحن لا نوافق على الفلتان الأمني وأنا لا أوافق على الفلتان الشعري.

رياض:

قلت مراراً إن القصيدة هي التي تكتبني، كيف أفهم هذا، والسؤال ليس لي فقط، وإنما كثير من المستمعين، كيف تولد العملية الإبداعية، كيف تدقق في القصيدة دون فوضى ودون فلتان شعري؟ وكيف تخضعها إلى نظام وكيف تقودها كما تقود سيارتك، وكيف القصيدة تكتُبُك؟

نزار:

القصيدة لا توقيت لها، يعني مثل الزلازل تأتي وتضرب، لكن هي ليست زلزالاً مفاجئاً، هي تتكون في أعماق النفس كما تتكون المياه الجوفية في الأرض، أنا أقول دائماً عندما أكتب القصيدة لست وحدي، يكتبها معي المتنبي ويكتبها معي عمر بن أبي ربيعة والبحتري والشريف الرضي وبودلير وميلارميه ورامبو، يعني أن الثقافة عندما يكون الشاعر مثقفاً فهو يختزنها في الأعماق وتتداخل الأمور، المياه الجوفية تتجمع نقطة وراء نقطة وراء نقطة حتى تنفجر، متى انفجرت القصيدة الشاعر ليس له يد في ذلك، لا يستطيع شاعر أن يقول أنا في الساعة الخامسة سوف أجلس إلى مكتبي مثل حكيم الأسنان، هذا كلام فارغ، أنا أعتقد أن القصيدة يجب أن يكون وراءها ثقافة، يجب أن يكون وراءها معاناة، وبدون معاناة تكون عملية تجليط وكذب، أعرف أناساً لم يحبوا في حياتهم مرة واحدة ولم يلمسوا ظفر امرأة وكتبوا مئات قصائد حب، يجب أن يكون هناك معاناة ويجب أن يكون هناك لغة شعرية ومعاناة وثقافة شعرية وعامة أيضاً. مثلاً أنا أقرأ بحثاً في الكيمياء أو الكومبيوتر، فأنسى به الشعر ولكن يفيدني فيما بعد لكتابة الشعر، ثم بعد أن تطلع القصيدة تبدأ عملية المراقبة وتبدأ الإحساس بالمسؤولية، أنت كشاعر عندك لغتك وعندك صورك عندك ثقافتك وكل ما تعرفه عن الشعر العربي والعالمي عندئذ تبقى العملية بينك وبين القصيدة، أنا شخصياً لا أتهاون،لا أرمي القصيدة كما تريد على عواهنها كما يقولون، وإنما أعتبرها سيارة يجب على المرء أن يقودها بكل اتزان، وإلا بقيت في قاع الوادي.

رياض:

في أدبنا العربي نقول هناك شاعر كبير وهناك ناثر كبير .... أنت تكتب النثر شعراً وأنت تتحدث شعراً أيضاً، ولكن النثر فيه شاعرية عذبة...

نزار:

اعترف أنني أعتبر نثري أهم من شعري، لأني أنا مع نثري عصفور طائر، ليس هناك حدود لا لأجنحتي ولا للفضاءات التي أكبر فيها، أما الشعر فهو نظام ورقابة وممارسة ومسؤولية، القافية تأتي أو لا تأتي، أما النثر فليس هناك مشكلة، وخاصة إذا كانت العاطفة كبيرة، كما فيما قدمتُ في الأمسية حيث أردت أن أكتب عن كل شيء، عن سوق البهارات، عن مقهى النوفرة، عن المآذن، عن اللوز الأخضر، عن السفرجل، عن عرائس الزعتر...

رياض:

ماذا تقول عن موضوع التكلم بصيغة المتكلم...

نزار:

من أجل خلق الموقف الدرامي كتبت بصيغة المتكلم ... حين الإنسان يتكلم عن قضية له الحرية أن يستعمل أية صيغة، لذلك أنا لا أتصور أن إنساناً حمل المرأة على كتفيه خلال أربعين عاماً أكثر مما حملتها، لكنني الآن قررت أن أنزلها لأنها لم تفعل شيئاً لقضيتها، هي ذات قضية... قضية المرأة استقلال يؤخذ ولا يعطى ، والذي يريد أن يصل إلى تحقيق قضية لابد أن يكون للقضية ضحايا، ليس هناك امرأة تريد أن تضحي، أستثني بعض الحالات، ولكن المرأة بصورة عامة في الشرق العربي مستريحة، وتحب أن تبقى الأميرة ذات الامتيازات، وتحب أن تُقدم لها الحرية على طبق من الذهب، أنا قاتلت كثيراً في سبيل المرأة، وآن الأوان في الحقيقة لتقول المرأة كلمتها وتتحرر بطريقتها الخاصة، لا أحد يستطيع أن يقاتل عن الآخرين...

الرجال هم المسؤولون عن الحالة البدائية والقمعية التي تعيش بها المرأة، ثم على فكرة، أنا هاجمت الرجل أكثر بكثير مما دافعت عن المرأة، اعتبرته

هو الإقطاعي و الاحتكاري، وهو الذي لا يقبل مشاركة المرأة حتى بالرأي، أنا أعرف أن أزواجاً إذا تكلمت زوجاتهم أكثر من اللازم في مجلس ما يغضبون في البيت «ويزفونها»، الرجل ما يزال سلطوياً وما يزال بيده التشريع، بيده القانون، بيده الثقافة، بيده الصحافة، بيده كل شيء. وليس هناك رجل في العالم يملك ويقبل أن يتنازل عمّا يملك، لذلك على المرأة بأظافرها وأسنانها أن تأخذ حقها.

شفتاك من حجر وصوتك من حجر
ويداك آنيتان من عصر الحجر
وأنا على طرف السرير كنخلة
من ألف قرنٍ وهي تنتظر المطر
انهض انهض انهض ، فإنك حالة ميؤوسة
انهض فلا علم لديك ولا خبر
أنسيتَني شكلي وشكل أنوثتي
وكسرت أغصاني وأتلفت الزهر
إني أعضّ على بياض شراشفي
وأعض من قهري شبابيك القمر
يا أيّها الرجلِ النحاسي الذي
أحببته خطأ
وهذا بعض سخرية القدر.
الجنس عندك كيمياءٌ صرفةٌ
والعشق عندك من تقاليد السفر
يا فاقد الإحساس قل لي كلمةً
قل لي كلاماً حامضاً أو مالحاً
قلْ لي كلاماً غامضاً أو واضحاً
قلْ قصةً، قلْ طرفةً، فأنا
أموت من الضجر

رياض:

ماذا يعني لك الأسلوب الفني؟

نزار:

الأسلوب الفني عمل من أعمال الفانتازيا أعمال «البطر». أنا لا أريد أن أكون بطران شعر أو نثر أو أي شيء ولا أرسم أو أعمل أواني سيراميك أو أرسم على الفسيفساء والقيشاني، هذا انتهى منذ عصر المنفلوطي.. الآن الشعر هو التحام بالناس بالجمهور بالقضايا، لتسمحوا لي إذا صرخت، ويحق لي أن أصرخ كإنسان متألم وموجوع. أما ما كتبتُه عن الأمة العربية فمن دافع الحب ومن دافع العشق الكبير الذي يعشق حبيبته يذهب ليحضر لها دواء، وإذا استعصى الدواء يأتي ويفتح مكان الجرح، أما مجرد أن أكتفي بالدعوات الصالحات، أن يشفي الله حبيبتي أو وطني. إذا كان لهذا الوطن العربي الكبير عاهات أو مشاكل أو خطايا ليس مفروضاً أن أسكت، أنا كشاعر مسؤول أمام الجماهير وأمام القضية والتاريخ. فإذا رفعت صوتي أكثر من اللازم يجب ألا أُفهم خطأ، أنا وطنيّ كبير، أنا قوميّ كبير، أنا وحدويّ كبير، ولكن ربما هذا أعبر عنه، ولأنني كذلك أعبر عنه بنوع يشبه الصراخ والغضب فإذا صرخت فمن أجل أن يكون وطني أجمل وأرقى ومتمتعاً بالعافية.

5 - الفنان في التزامه الذاتي

لقد سبق أن كررنا أن نـزاراً، خلافاً لما يعتقده كثيرون، فنان ملتزم إزاء جمهوره بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى. وذلك ظاهر تماماً في سيرته الذاتية «**قصتي مع الشعر**»، وفيما يلي إجابة واضحة في هذا الموضوع من خلال مقابلة أجراها في أخريات أيامه مع مجلة «**الشروق**»[35]، نقتطف منها مقطعين في صلب الموضوع:

س : كيف حافظت على جمهورك طوال الخمسين عاماً الفائتة؟

نزار :

اشتغلت شعرياً، وتعبت في شغلي، فأنا أخطط لشعري، والشعر عندي ليس شأناً ارتجالياً، كما أنني لا أستهين بجمهوري أبداً.. ليس في قاموسي العملي «**أنت وصلت..**» «**أنت شاعر مشهور**» أو «**أنت شاعر كبير**».. هذه كلها كلمات صحافية لا أعترف بها. أنا تلميذ شعر، لم أتخرج من مدرسته بعد خمسين سنة، وأنا أذاكر في الشعر، كمذاكرة أي تلميذ مدرسة. قبل يومين، أي قبل الأمسية، قطعت كل هواتفي عن غرفتي في الفندق. ذلك أنني كنت «أذاكر» القصائد التي سألقيها، كنت أختار قصائدي وأنظّم لقراءتي. كنت أعمل ما يشبه البرنامج، بل، لعلني كنت أبرمج شعري. الشعر عندي نظام. وأي فن في العالم ينبغي أن يكون منظماً. قرأت عن تشايكوفسكي وعن عاداته.. كان يرتدي «السموكن» صباحاً، يتناول إفطاره ويجلس إلى البيانو من الساعة التاسعة صباحاً وحتى الظهيرة، يتغدى، ثم يأخذ قيلولته.. ويعاود العمل مساء من الخامسة إلى العاشرة ليلاً.. هذا التراتب الزمني المبرمج يقول لنا إنه لا يوجد شيء اسمه اعتباط في الفن.. وأنا لم أكن شاعر المصادفة في يوم

---

35 . الشروق، ع 68 ، 25 /11/ 1993 .

من الأيام. لو كنت كذلك لانتهيت من زمان.. وليس صحيحاً أنني أبتز غرائز جمهوري العاطفية والجنسية والسياسية.. على أي حال، فتلك هي حياتنا.. أنا شاعر من العالم الثالث، ولست شاعراً سويديا أو دانمركياً أو ألمانياً. أنا شاعر بدوي وأحمل كل طباع البدو في شعري.. عنفهم، شراستهم، طيبتهم وهجومهم على الأشياء.. ذلك هو أنا، وذلك هو شعري، وأتصور أنني شبيه عصري دون مواربة ولا قناع.

س : طموحاً .. إلى أين تحمل مثل هذه البداوة فيك؟

نزار :

طموحي إلى مزيد من تأميم الشعر وجعله لكل الناس. لو سمعت أن طفلاً عربياً في «نواكشوط» لم يفهم بيتاً من شعري، فمن واجبي الذهاب والاعتذار إليه، على اعتبار أن التقصير في ذلك هو تقصيري، فربما كانت صياغتي الشعرية غير موفقة وغير مناسبة ولذلك لم يفهم الطفل شعري.

6 - مقابلة مثيرة في أيام نزار الأخيرة[36]

من المفيد أن نذكر هنا أن مقابلات نزار حول فنّه كانت دائماً جريئة واضحة تخدم القارئ وتعفي الناقد من الشرح وإطلاق الأحكام، وتترك الأمر لحصافة القارئ، كما أن مقالاته تتناول بصراحة وتفصيل معظم إنتاجه، وبذلك أعود إلى القراء، وأترك لهم فرصة إلقاء الأحكام متمثلاً مرةً أخرى بقول الشاعر: قطعت جهيزة قول كل خطيب، ولاسيما إذا أتى قولها في أخر المطاف.

مدينتي الشعرية:

س : هل يمكن تقسيم كتابتك إلى محطات كبرى يمكن إضافتها من خلال محطات محدودة... فهل إن «أحلى قصائدي» وهي مختاراتك أنت هي مساحة نهائية للاختيار، أم فكرة الاختيار الشخصي تتطلب إعادة نظر تشمل جديداً، لئلا تصبح سقفاً للقارئ؟

نزار:

المحطات الانتحارية في شعري هي حسب تصوري القصائد التالية:

- **خبز وحشيش وقمر**
- **هوامش على دفتر النكسة**
- **بكائية لجمال عبد الناصر**
- **متى يعلنون وفاة العرب**
- **المهرولون**
- **أنا يا صديقة متعب بعروبتي**
- **أنا مع الإرهاب**

---

36 .نشرت في جريدة العربي بتاريخ 4 / 7 / 1997 – عدد 217 ، أي قبل وفاة نزار بأقل من سنة. ونورد هنا مختارات منها .

أما «أحلى قصائدي» فهو ليس أكثر من دليل سياحي يعطيك أسماء الفنادق والمطاعم والمسارح والكافيتريات.

وسبب إصدار هذه المختارات هم الناس أنفسهم، فقد كانوا يسألونني في معارضي الشعرية «أستاذ... بين خمسين مجموعة شعرية لك نحن حائرون : ماذا تنتقي فانتق لنا، اعمل معروفاً،نريد كتاباً يكون على ذوقك، علماً بأن موازنتنا لا تسمح لنا بشراء أكثر من مجموعة واحدة»

وهكذا كان. وجمعت القصائد الأكثر جماهيرية وشعبية في شعري وطبعتها في كتاب واحد اسمه «**أحلى قصائدي**».

أحلى قصائدي كان اختياراً وقتياً وعملياً، ودليلاً سياحياً، كان صالحاً قبل عشرين عاماً.

أما اليوم فإن مدينتي الشعرية تغيرت كثيراً وصار فيها أوتوستر ادات كثيرة وفنادق كثيرة وحدائق كثيرة ومطارات كثيرة وطائرات جامبو وكونكورد، وأقنية فضائية.

لذلك لابد من إصدار: «**الدليل المفيد إلى شعر نزار قباني الجديد**» .

س : في ثقافتنا العربية تتميز علاقة الشعراء بالنقاد بتوتر وبلا مسؤولية، وسوء الفهم.. ما الذي يجعل الصورة هكذا؟ العلاقة بين الشعراء والنقاد ليست متوترة فقط ولكنها «مبهدلة» وعدوانية كعلاقة الزلاقط بالزلاقط، والزنابير بالزنابير.

نزار:

السبب في نظري ناشئ عن تقارب المهن بين الشاعر والناقد، وغَيرة فطرية لدى النقاد تجعلهم يعتبرون القصيدة «ضرّةً لهم».

العمل الشعري هو عمل حضاري بالدرجة الأولى. لذلك لابد أن يُقرأ بحضارة من قبل الناقد، وإلا تحوّلت القضية إلى حرب السلاح الأبيض يجري في دم القصائد بلا سبب.

أنا من الشعراء الذين استبيح دمهم مئات المرات. ولكنني في كل مرة

كنت أمسح دمي وأضع قطعة بلاستر على جرحي وأجلس على مكتبي لأكتب قصيدة جديدة. ودعني أعترف لك أن النقاد لم ينفعوني بشيء ولم يستطيعوا أن يقدموا لي أي خدمة لغوية أو عروضية أو بلاغية أو جمالية. لذلك أدرت لهم ظهري وشققت طريقي بأظفاري وقررت أن أتعلم من الجماهير كيف يُكتب الشعر».[37]

س : يخيّل إليّ أنك واسطة العقد بين شعراء خمسين سنة من الشعر العربي الحديث. لغتك الخاصة الحارة النافرة المتألقة في ريادتها للبساطة ذات جماليات شعرية سائرة على الألسن وفي ذائقة الأجيال، هي التي أهّلتك لذلك. ما هي مصادرك ومن هم آباؤك الشعريون وكذلك من هم الأحب إليك من الشعراء العرب الحديثين؟

نزار:

كل شعراء العالم من عرب وفرنسيين وإنكليز وإسبان هم آبائي قرأتهم جميعاً، ونسيتهم جميعاً. فحتى تكتب شعراً جميلاً وباهراً يجب أن تلغي ذاكرتك.

منذ عام 1944،تاريخ صدور« **قالت لي السمراء**»، قررت أن تكون لي لغتي الخاصة كمصممي الأزياء العالميين : فالنتينو و شانيل و بيار كاردان و إيف سان لوران.

كنت أريد أن أكون شاعراً له «ماركته المسجلة» فأنا لا أحب الألبسة الجاهزة ولا القصائد الجاهزة، لذلك صنعت لكل امرأة ثوباً خاصاً بها، ولكل رجل عباءة خاصة به. منذ خمسين عاماً قررت أن ألقي القبض على 200 مليون عربي بالشعر وحده، بالحب وحده، بالبساطة وحدها، بالديمقراطية وحدها.

وها أنذا بعد خمسين عاماً أشعر أن قصائدي تسافر من الماء إلى الماء، وأن لي ركناً في كل بيت عربي من المحيط إلى الخليج أشرب فيه قهوتي وآخذ قيلولتي.

---

37 .الحمد لله أن علاقتي مع نزار كانت علاقة محبة متبادلة كما يتبين من الرسائل المنشورة بيننا. على الرغم من أن علاقته بالنقاد كانت غالباً موضع حملة شديدة من جانبه كما يتضح من المقابلة أعلاه، وفي مجالات أخرى كثيرة. وقد أشاد بكثير من دراستي النقدية لشعره.«المؤلف»

من بين جيمع الشعراء العرب الحديثين لا أرى إلا وجه محمود درويش.

س : تحتل بيروت مكانة خاصة في نفسك وشعرك وهي تتأهب الآن لتكريمك من خلال رموز ثقافية فيها، لو كانت المدن تضيف، فما الذي أضافته على ما أعطته دمشق من قبل؟

نزار:

بيروت لا تتكرر بسهولة بالنسبة إليّ، ولو كان بإمكاني أن«أستنسخ» بيروت الخمسينيات مرة ثانية لما ترددت لحظة واحدة مهما كانت كلفة الاستنساخ. بيروت أعطتني جرعة من الحرية دوّختني، ولا أزال دائخاً وأنا جالس في بيتي في لندن. أعطتني بيروت كل ما يحتاج إليه العصفور ليطير، وكل ما يحتاج المركب ليبحر، وكل ما تحتاج إليه السمكة لتسبح، وكل ما تحتاج إليه الأصابع لتصبح بيانو. كنت أذهب إلى كورنيش بيروت الساعة الخامسة صباحاً وأعود في السابعة.. ومعي «خمس قصائد» تنبض في سلتي كما تنبض الأسماك في سلال الصيادين. بيروت كانت تيار كهرباء بقوة عشرة آلاف فولت، فيها كتبت من عام 1966 إلى 1982 أجمل ما كتبت من شعري في تاريخي الشعري.

أما دمشق فقد علمتني أبجدية الجمال الأولى، ولعب بيتنا الدمشقي الجميل في حي «مأذنة الشحم» دوراً عظيماً في صنع ذائقتي وتثقيف عيني.

س : ماذا في وسع الشعر أن يفعله في عصر العولمة ؟

نزار:

كل ما يجري في العالم الحالي مؤامرة على الشعر. فالعلم أصبح مغروراً إلى درجة أصبح فيها رباً.. يلعب بالجينات والهندسة الوراثية وقوانين الطبيعة، بحيث صار إنتاج البشر لا يحتاج إلى رجل وأنثى لإتمام مهمة التوالد. وهذا يعني أن قصائد الغزل لن يكون لها نفع، ومواعيد الحب لن تكون لها جدوى، ودواوين الشعر لن تكون لها فائدة. والسهر في ضوء القمر سوف يكون إضاعة للوقت. العلم سوف يقتل كل شيء، ثم يقتل نفسه. الكومبيوتر وحش، والأقنية

الفضائية وحش، والموسيقا الحديثة وحش...

لذلك لن يبقى في مقهى العولمة كرسي واحد يجلس عليه الشعر. ولن تكون في الحدائق العامة مقاعد يجلس عليها العشاق. ولن تكون في الصيدليات حبوب لمنع الحمل. لأنه لن تكون هناك نساء يحملن ولا رجال يعرفون ما هي الأبوة! مع قدوم القرن الحادي والعشرين سيحمل الشعر حقائبه، ويسافر إلى جزيرة في عرض البحر، لا توجد فيها تكنولوجيا متقدمة ولا أقمار صناعية ولا تلفونات موبايل ولا إنترنت.

س : مرة كنت في أرض الشعر الصافي، في فكرة الفن للفن، ومرة أخرى في قلب حمأة الشعور العام للناس... كيف تبني قرارك الشعري وكيف يتحدد ميلك التعبيري نحو العالم والأشياء؟

نزار:

أنا لا أستطيع أن أرقص على جثة أمة تقترب من الانقراض.

لا أستطيع أن أكون شاعراً من البلاستيك يشتغل على البطاريات، لا أستطيع التغني بأمجاد النهدين وأمجاد أمتي تسحق بالبلدوزر.

الناس كفروا بالعشق... وبـ «مجنون ليلى» وبـ «طوق الحمامة» وبمرحلة الحب العذري الذي هو أشبه بعلك اللبان.

وبعد قصيدتي الأخيرة «أنا.. والإرهاب..» ، وبعد آلاف المكالمات الهاتفية والفاكسات التي تلقيتها من الوطن العربي ومن المغتربين في كل مكان، تبين لي أن كل العرب يريدون أن يكونوا إرهابيين ويريدون أن يحملوا السلاح ضد التخلف والغيبوبة والاندثار، ويريدون أن يقرؤوا شعراً يشبههم. اليوم اكتشفت أن نظرية «الفن للفن» في زمن الكوليرا هي خيانة عظيمة وأن الشعر الذي لا يشتبك بهموم الناس ودموعهم وقضاياهم المصيرية سيذهب إلى سلة المهملات.[38]

---

38 .. تذكّر رده السلبي على الالتزام الشعري في موقف مبكر سبق ذكره.

س : ما الذي يجعل السياسي يغار من الشاعر إلى درجة التمثل بقابيل..

نزار:

نعم. الجمال كان دائماً دافعاً إلى القتل، وجمال الشاعر والكاريزما الشعبية التي يتمتع بها تجعله كسيدنا يوسف هدفاً للغيرة حتى من قبل إخوته. وبما أن السياسي هو قبيح أصلاً، فلابد له من قتل كل ما هو جميل حوله ليبقى محتفظاً بكرسي السلطة.

س : كيف كانت علاقتك بعبد الحليم حافظ؟

نزار:

عبد الحليم يختصر تاريخ الغناء والمغنين منذ إسحق الموصلي حتى اليوم. ولو أن الله كتب لهذا المبدع أن يعيش خمسين سنة أخرى لقَلَبَ تاريخ الغناء العربي من أساسه. إنه مغن ثوري وانقلابي ومغامر من طراز نادر، وحين أعطيته قصيدتّي «رسالة من تحت الماء» و «قارئة الفنجان» التمعت في عينه آلاف النجوم وقال: «شكراً يا نزار، هذا هو الشعر الذي أرى أن أغنّيه». عبد الحليم كان صديقي وأملي في إنهاء عصر التلوث الموسيقي الذي نعيشه. لقد أعطت السيدة أم كلثوم كل ما عندها وأعطى الموسيقار محمد عبد الوهاب كل ما عنده، ولكن عبد الحليم كان وردة الحداثة التي جفّت قبل أن تعطي كل عبيرها، وكان قمر الحب الذي غاب قبل أن يملأ سماعنا بأمطار الياسمين.

س : بمناسبة عنوان ديوانك: «أنا رجل واحد وأنت قبيلة من النساء» كيف يكون انطباعك وأنت تقرأ مثلاً ديواناً شعرياً، مثلاً لامرأة تحت عنوان «أنا امرأة واحدة وأنت قبيلة من الرجال»؟

نزار:

ليس عندي تفرقة عنصرية أو ثقافية أو جنسية بين رجل وامرأة. فعندما

تصدر امرأة ديواناً شعرياً تحت عنوان : «أنا امراة واحدة وأنت قبيلة من الرجال» سوف أذهب إليها حاملاً باقة ورد، وأقبل يديها من الوجه والقفا.

س : أنت أب طبيعي وبالضرورة لكثيرين من الشعراء العرب.. بعضهم كمحمود درويش ...

نزار:

اعترف لك بهذه الأبوة. وبعضهم يمر عليها متكتماً. لا أعلق على قضية الاعتراف أهمية كبيرة، فهناك شعراء طبيعيون، وهناك شعراء لديهم عقدة النقص التي لا تسمح لهم بأن يعترفوا بأن الشعر كان موجوداً قبلهم.. الأمر لا يعنيني كثيراً ولا أريد أن أتحول إلى وكيل نيابة مهمته أن يجمع إفادات الشعراء واعترافاتهم.

س : ما الذي تريد من كل شيء، من الشعر، من الحياة، من المرأة؟

نزار:

من الشعر أريده أن يكون مطراً يغمر كل الناس.. وخبزاً يكفي لإطعامهم جميعاً. ومن الحياة أريدها أن تكون واحة سلام وتسامح وحب. ومن المرأة أريدها أن تتخلى عن وصايا أجدادها وتطبّق وصايا قصائدي:

إنـّي خيرتك فاختاري
ما بين الموت على صدري
أو فوق دفاتر أشعاري
اختاري الحب.. أو اللا حب
جبنٌ ألا تختاري ..
لا توجد منطقة وسطى
ما بين الجنة والنار

س : ما هي أهم المفردات التي أدخلتها على اللغة، وباتت مرجعاً لدى جهتين: المجمع اللغوي، والناس؟

نزار:

المجمع اللغوي، لا علاقة له بشعري، ولا المعاجم. الناس هم قاموسي الكبير، وإذا أردت أن تعرف عدد المفردات الجديدة في شعري فاسأل تلاميذ المدارس الابتدائية. اسأل أولاد الحارة. اسأل سائق التاكسي، والممرضة، ومضيفات الطيران، ونادل المقهى، ومعلمة المدرسة، وبائعة الورد، ومذيعة التلفزيون. إنك ستجدني في كل مكان، من نواكشوط إلى عدن، ومن الدار البيضاء إلى الإسكندرية، من فتوحات قرطاج إلى بيروت، وباختصار أقول إن كل فتوحاتي كانت فتوحات لغوية.

ولا بأس أن نستأذن من ابنته الوفية هدباء قباني:

7- نزار قباني

بقلم هدباء قباني

كانت جدتي تدلّله باسم «نزّوري» حين كان طفلاً ضائعاً بين أحواض الورد والخبيزة وبين عريشة الياسمين وأشجار الليمون والسفرجل ونافورة المياه الزرقاء في بيت أبويه بدمشق القديمة، وهائماً مع أسراب الحمام والسنونو وقطط البيت. وعندما بلغ سن العاشرة، لم يترك «نزار» صنعة فنٍّ لم يجربها: من الرسم، إلى الخط العربي، إلى الموسيقا، إلى أن رسا قاربه – وهو في السادسة عشرة – على شاطئ الشعر.

قبل أن يكون أبي كان صديقي، ومنه تعلمت أن أحكي بينما هو يستمع، رغم ندرة استماع الرجل إلى المرأة في مجتمعنا. زان أبي مراهقتي وشبابي بشعره، لكنه – في المقابل وبصفاء نيّة – أفسد حياتي بشعره وبتعامله معي؛ فقد جعلني أقارن بينه وبين الرجال الذين ألقاهم، وأتت المقارنة دائماً لصالح أبي، ورأيت أغلب الرجال طغاة.

كان جاري في لندن، ولكنه لم يزرني قط دون موعد مسبق. وفي نادرة، دقّ بابي دون موعد، وعندما وجد لديّ صديقات اعتذر، واستدار عائداً مؤجلاً زيارته لمرة أخرى، ولم يستبقه سوى صراخ الصديقات بأن يبقى.

قد يكون أهم ما أذكره عن أبي، هو ذلك التشابه المذهل بينه وبين شعره؛ فهو لا يلعب دوراً على ورق الكتابة، ودوراً آخر على مسرح الحياة. ولا يضع ملابس العاشق حين يكتب قصائده، ثم يخلعها عند عودته إلى البيت.

وبعد، كم أشعر بالفخر لأن أبي هو نزار قباني، الشاعر الذي نقل الحب من الأقبية السرّية إلى الهواء الطلق.

القسم الرابع

نزار العربي الفلسطيني

كان نزار كأي مواطن عربي مخلص يتابع تطورات المأساة ولا يترك أية بارقة أمل دون أن يتابعها ، وكان الجرح الفلسطيني يؤرقه دائماً، كما يتضح من المختارات التالية:

خبز وحشيش وقمر

عندما يولد في الشرق القمر..
فالسطوح البيض تغفو
تحت أكداس الزهر..
يترك الناس الحوانيت و يمضون زمر
لملاقاة القمر..
يحملون الخبز.. و الحاكي..إلى رأس الجبال
و معدات الخدر..
و يبيعون..و يشرون..خيال
و صور..
و يموتون إذا عاش القمر..

... ...

ما الذي يفعله قرص ضياء؟
ببلادي..
ببلاد الأنبياء..
و بلاد البسطاء..
ماضغي التبغ و تجار الخدر..
ما الذي يفعله فينا القمر؟
فنضيع الكبرياء..
و نعيش لنستجدي السماء..

ما الذي عند السماء؟
لكسالى..ضعفاء..
يستحيلون إلى موتى إذا عاش القمر..
و يهزون قبور الأولياء..
علها ترزقهم رزاً.. و أطفالاً..قبور الأولياء
و يمدون السجاجيد الأنيقات الطرر..
يتسلون بأفيونٍ نسميه قدر..
و قضاء..
في بلادي.. في بلاد البسطاء..

... ...

أي ضعفَ و انحلال..
يتولانا إذا الضوء تدفق
فالسجاجيد.. و آلاف السلال..
و قداح الشاي .. و الأطفال..تحتل التلال
في بلادي
حيث يبكي الساذجون
و يعيشون على الضوء الذي لا يبصرون..
في بلادي
حيث يحيا الناس من دون عيون..
حيث يبكي الساذجون..
و يصلون..
و يزنون..
و يحيون اتكال..
منذ أن كانوا يعيشون اتكال..
و ينادون الهلال:
«يا هلال..

أيها النبعِ الذي يمطر ماس..
و حشيشياً..و نعاس..
أيها الرب الرخامي المعلق
أيها الشيء الذي ليس يصدق»..
دمت للشرق..لنا
عنقود ماس
للملايين التي عطلت فيها الحواس

... ...

في ليالي الشرق لما..
يبلغ البدر تمامه..
يتعرى الشرق من كل كرامه
و نضال..
فالملايين التي تركض من غير نعال..
و التي تؤمن في أربع زوجاتٍ..
و في يوم القيامه..
الملايين التي لا تلتقي بالخبز..
إلا في الخيال..
و التي تسكن في الليل بيوتاً من سعال..
أبداً.. ما عرفت شكل الدواء..
تتردى جثثاً تحت الضياء..
في بلادي.. حيث يبكي الأغبياء..
و يموتون بكاء..
كلما حركهم عودٌ ذليلٌ..و «ليالي»
ذلك الموت الذي ندعوه في الشرق..
«ليالي»..و غناء
في بلادي..

في بلاد البسطاء..
حيث نجتر التواشيح الطويلة..
ذلك السئل الذي يفتك بالشرق..
التواشيح الطويلة..
شرقنا المجتر..تاريخاً
و أحلاماً كسولة..
و خرافات خوالي..
شرقنا، الباحث عن كل بطولة..
في أبي زيد الهلالي..

طريق واحد

أريد بندقيه..
خاتم أمي بعته
من أجل بندقيه
محفظتي رهنتها
من أجل بندقيه..
اللغة التي بها درسنا
الكتب التي بها قرأنا..
قصائد الشعر التي حفظنا
ليست تساوي درهماً..
أمام بندقيه..
أصبح عندي الآن بندقيه..
إلى فلسطين خذوني معكم
إلى ربىً حزينة كوجه مجدليه
إلى القباب الخضر.. والحجارة النبيه
عشرون عاماً.. وأنا
أبحث عن أرض وعن هويه
أبحث عن بيتي الذي هناك
عن وطني المحاط بالأسلاك
أبحث عن طفولتي..
وعن رفاق حارتي..
عن كتبي.. عن صوري..
عن كل ركن دافئ.. وكل مزهريه..
أصبح عندي الآن بندقيه
إلى فلسطين خذوني معكم
يا أيها الرجال..
أريد أن أعيش أو أموت كالرجال

أريد.. أن أنبت في ترابها
زيتونةً، أو حقل برتقال..
أو زهرةً شذيه
قولوا.. لمن يسأل عن قضيتي
بارودتي.. صارت هي القضيه..
أصبح عندي الآن بندقيه..
أصبحت في قائمة الثوار
أفترش الأشواك والغبار
وألبس المنيه..
مشيئة الأقدار لا تردني
أنا الذي أغيّر الأقدار
يا أيها الثوار..
في القدس، في الخليل،
في بيسان، في الأغوار..
في بيت لحمٍ، حيث كنتم أيها الأحرار
تقدموا..
تقدموا..
فقصة السلام مسرحيه..
والعدل مسرحيه..
إلى فلسطين طريقٌ واحدٌ
يمر من فَوْهة بندقيه..

متى يعلنون وفاة العرب

1

أحاول منذ الطفولة رسم بلادٍ
تسمى مجازا بلاد العرب
تسامحني إن كسرت زجاج القمر...
وتشكرني إن كتبت قصيدة حب
وتسمح لي أن أمارس فعل الهوى
ككل العصافير فوق الشجر... .
أحاول رسم بلادٍ
تعلمني أن أكونَ على مستوى العشق دوما
فأفرش تحتك ، صيفا ، عباءة حبي
وأعصر ثوبك عند هطول المطر...

2

أحاول رسم بلاد...
لها برلمانٌ من اليَاسمين.
وشعبٌ رقيق من الياسمين.
تنام حمائمها فوق رأسي.
وتبكي مآذنها في عيوني.
أحاول رسم بلادٍ تكون صديقة شعري.
ولا تتدخل بيني وبين ظنوني.
ولا يتجوّل فيها العساكر فوق جبيني.
أحاول رسم بلاد...
تكافئني إن كتبتُ قصيدة شعرٍ
وتصفح عني ، إذا فاض نهر جنوني

3

أحاول رسم مدينة حبٍ...

تكون محررةً من جميعِ العقد...

فلايذبحون الأنوثة فيها...ولايقمعون الجسد...

4

رحلت جنوبا...رحلت شمالا...

ولافائده...

فقهوة كل المقاهي ، لها نكهةٌ واحده...

وكل النساء لهن إذا ما تعرين

رائحةٌ واحده...

وكل رجال القبيلة لايمضغون الطعام

ويلتهمون النساء بثانيةٍ واحده.

5

أحاول منذ البدايات...

ألاأكون شبيها بأي أحدٍ...

رفضت الكلام المعلب دوماً

رفضت عبادة أي وثن...

6

أحاول إحراق كل النصوص التي أرتديها.

فبعض القصائد قبرٌ،

وبعض اللغات كفن.

وواعدت آخر أنثى...

ولكنني جئت بعد مرور الزمن...

7

أحاول أن أتبرأ من مفرداتي
ومن لعنة المبتدا والخبر...
وأنفض عني غباري.
وأغسل وجهي بماء المطر...
أحاول من سلطة الرمل أن أستقيل...
وداعا قريشٌ...
وداعا كليبٌ...
وداعا مضر...

8

أحاول رسم بلاد
تسمى مجازا بلَاد العرب
سريري بها ثابتٌ
ورأسي بها ثابتٌ
لكي أعرف الفرق بين البلاد وبين السفن...
ولكنهم...أخذوا علبة الرسم مني.
ولم يسمحوا لي بتصوير وجه الوطن...

9

أحاول منذ الطفولة
فتح فضاء من الياسمين
وأسست أوَل فندق حبٍ...بتاريخ كل العرب...
ليستقبل العاشقين...
وألغيت كل الحروب القديمة...
بين الرجال...وبين النساء...
وبين الحمام...ومن يذبحون الحمام...
وبين الرخام ومن يجرحون بياض الرخام...

ولكنهم...أغلقوا فندقي...
وقالوا بأن الهوى لايليق بماضي العرب...
وطهر العرب...
وإرث العرب...
فيا للعجب!!

10

أحاول أن أتصور ما هو شكل الوطن؟
أحاول أن أستعيد مكاني في بطن أمي
وأسبح ضد مياه الزمن...
وأسرق تينا ، ولوزا ، و خوخا،
وأركض مثل العصافير خلف السفن.
أحاول أن أتخيل جنة عدن
وكيف سأقضي الإجازة بين نهور العقيق...
وبين نهور اللبن...
وحين أفقت...اكتشفت هشاشة حلمي
فلا قمرٌ في سماء أريحا...
ولا سمكٌ في مياه الفراط...
ولا قهوةٌ في عدن...

11

أحاول بالشعر...أن أمسك المستحيل...
وأزرع نخلا...
ولكنهم في بلادي ، يقصون شعر النخيل...
أحاول أن أجعل الخيل أعلى صهيلا
ولكن أهل المدينة يحتقرون الصهيل!!

12

أحاول سيدتي أن أحبك...
خارج كل الطقوس...
وخارج كل النصوص...
وخارج كل الشرائع والأنظمه
أحاول سيدتي أن أحبك...
في أي منفى ذهبت إليه...
لأشعر حين أضمك يوما لصدري
بأني أضم تراب الوطن...

13

أحاول مذ كنت طفلا، قراءة أي كتابٍ
تحدث عن أنبياء العرب.
وعن حكماء العرب... وعن شعراء العرب...
فلم أر إلا قصائد تلحس رجل الخليفة
من أجل حفنة رزٍ... وخمسين درهم...
فيا للعجب!!
ولم أر إلا قبائل ليست تفرق ما بين لحم النساء...
وبين الرطب...
فيا للعجب!!
ولم أر إلا جرائد تخلع أثوابها الداخليه...
لأي رئيس من الغيب يأتي...
وأي عقيدٍ على جثة الشعب يمشي...
وأي مرابٍ يكدس في راحتيه الذهب...
فيا للعجبٍ!!

14

أنا منذ خمسين عاما،

أراقب حال العرب.

وهم يرعدون، ولايمطرون...

وهم يدخلون الحروب، ولايخرجون...

وهم يعلكون جلود البلاغة علكا

ولا يهضمون...

15

أنا منذ خمسين عاما

أحاول رسم بلاد

تسمى مجازا بلَاد العرب

رسمت بلون الشرايين حينا

وحينا رسمت بلون الغضب.

وحين انتهى الرسم، ساءلت نفسي:

إذا أعلنوا ذات يوم وفاة العرب...

ففي أي مقبرة يدَفنون؟

ومن سوف يبكِي عليهم؟

وليس لديهم بناتٌ...

وليس لديهم بنون...

وليس هنالك حزنٌ،

وليس هنالك من يحزنون!!

16

أحاول منذ بدأت كتابة شعري

قياس المسافة بيني وبين جدودي العرب.

رأيت جيوشا...ولا من جيوش...

رأيت فتوحا...ولا من فتوح...

وتابعت كل الحروب على شاشة التلفزه...
فقتلى على شاشة التلفزه...
وجرحى على شاشة التلفزه...
ونصرٌ من الله يأتي إلينا...على شاشة التلفزه...

17

أيا وطني: جعلوك مسلسل رعبٍ
نتابع أحداثه في المساء.
فكيف نراك إذا قطعوا الكهرباء؟؟

18

أنا...بعد خمسين عاما
أحاول تسجيل ما قد رأيت...
رأيت شعوبا تظن بأن رجال المباحث
أمرٌ من الله...مثل الصداع...ومثل الزكام...
ومثل الجذام...ومثل الجرب...
رأيت العروبة معروضةً في مزاد الأثاث القديم...
ولكنني...ما رأيت العرب !!

هوامش على دفتر الهزيمة 1991

1

لا حربنا حربٌ، ولا سلامنا سلام
جميع ما يمر في حياتنا
ليس سوى أفلام ...
زواجنا مرتجلٌ .
وحبنا مرتجلٌ .
كما يكون الحب في بداية الأفلام .
وموتنا مقررٌ .
كما يكون الموت في نهاية الأفلام .

2

لم ننتصر يوماً على ذبابةٍ
لكنها .. تجارة الأوهام .
فخالدٌ ، وطارقٌ ، وحمزةٌ ،
وعقبة بن نافع ،
والزير ، والقعقاع ، والصمصام .
مكدسون كلهم ..
في علب الأفلام ..

3

وراءها هزيمةٌ ..
وراءها هزيمةٌ ..
كيف لنا أن نربح الحرب
إذا كان الذين مثلوا ..
وصوروا ..
وأخرجوا ..

تعلموا القتال في وزارة الإعلام ؟؟

4

في كل عشرين سنه ..
ليذبح الوحدة في سريرها
ويجهض الأحلام.

5

في كل عشرين سنه ..
يأتي إلينا حاكمٌ بأمره
ويأخذ الشمس إلى منصة الإعدام .

6

في كل عشرين سنه
يأتي إلينا نرجسيٌ عاشقٌ لذاته
ليدعي بأنه المهدي ، والمنقذ ،
والواحد ، والخالد ،
والحكيم ، والعليم ، والقديس ،
والإمام ...

7

في كل عشرين سنه
يأتي إلينا رجلٌ مقامرٌ
ليرهن البلاد ، والعباد ، والتراث ،
والشروق ، والغروب ،
والذكور ، والإناث ،
والأمواج ، والبحر ،
على طاولة القمار ..

8

في كل عشرين سنه
يأتي إلينا رجلٌ معقدٌ
يحمل في جيوبه أصابع الألغام ..

9

ليس جديداً خوفنا
من يوم كنا نطفةً
في داخل الأرحام .

10

هل النظام ، في الأساس ، قاتلٌ ؟
عن صناعة النظام ؟

11

إن رضي الكاتب أن يكون مرةً
دجاجةً ..
تعاشر الديوك .. أو تبيض .. أو تنام ..

12

للأدباء عندنا نقابةٌ رسميةٌ
تشبه في تشكيلها
نقابة الأغنام ...
ثم ملوكٌ أكلوا نساءهم
في سالف الأيام
لكأنما الملوك في بلادنا
تعودوا أن يأكلوا الأقلام ...

13

وأصبح التاريخ في أعماقنا
إشارة استفهام !!

14

هم يقطعون النخل في بلادنا
للسيد الرئيس ، غاباتٍ من الأصنام !

15

لم يطلب الخالقَ من عباده
أن ينحتوا يوماً له
مليون تمثالٍ من الرخام !!
تقاطعت في لحمنا خناجر العروبه
واشتبك الإسلام بالإسلام ...

16

بعد أسابيع من الإبحار في مراكب الكلام
إلا الجلد والعظام ..

17

طائرة «الفانتوم» ..
تنقض على رؤوسنا

18

الحرب ..
لا تربحها وظائف الإنشاء .
ولا التشابيه .. ولا النعوتِ .. والأسماء
فكم دفعنا غالياً ضريبة الكلام ...

19

من الذي ينقذنا من حالة الفصام ؟
ونحن كل ليلة ..
نرى على الشاشات جيشاً جائعاً .. وعارياً ..
يشحذ من خنادق الأعداء «ساندويشةً»
وينحني .. كي يلثم الأقدام !!
قد دخل القائد – بعد نصره –
لغرفة الحمام ..
ونحن قد دخلنا
لملجأ الأيتام !!..
نموت مجاناً .. كما الذباب في إفريقيا
نموت كالذباب.
ويدخل الموت علينا ضاحكاً
ويقفل الأبواب.
نموت بالجملة في فراشنا
ويرفض المسؤول عن ثلاجة الموتى
بأن يفصل الأسباب
نموت .. في حرب الإشاعات..
وفي حرب الإذاعات..
وفي حرب التشابيه..
وفي حرب الكنايات..
وفي خديعة السراب .
نموت.. مقهورين، منبوذين ، ملعونين..
منسيين كالكلاب ..
يفلسف الخراب...

20

مضحكةٌ مبكيةٌ.

معركة الخليج.

فلا النصال انكسرت فيها على النصال.

ولا رأينا مرةً..

آشور بانيبال

فكل ما تبقى.. لمتحف التاريخ .

أهرامٌ من النعال!!.

21

في كل عشرين سنه.

يجيئنا مهيار.

يحمل في يمينه الشمس،

وفي شماله النهار.

ويرسم الجنات في خيالنا

وينزل الأمطار.

وفجأةً..

يحتل جيش الروم كبرياءنا

وتسقط الأسوار!!.

22

في كل عشرين سنه.

يأتي امرؤ القيس على حصانه

23

أصواتنا مكتومةٌ.

شفاهنا مختومةٌ.

شعوبنا ليست سوى أصفار ...

إن الجنون وحده،
يصنع في بلادنا القرار...

24
نكذب في قراءة التاريخ.
نكذب في قراءة الأخبار.
إلى انتصار!!.

25
يا وطني الغارق في دمائه
يا أيها المطعون في إبائه
مدينةً مدينةً..
نافذةً نافذةً ..
غمامةً غمامةً..
حمامةً حمامةً ..
مئذنةً مئذنةً ..
أخاف أن أقرئك السلام ..
يسافر الخنجر في عروبتي
يسافر الخنجرِ في رجولتي
هل هذه هزيمةٌ قطريةٌ ؟
أم هذه هزيمةٌ قومية ؟

26
يسافر الخنجر في عروبتي
يسافر الخنجرِ في رجولتي
هل هذه هزيمةٌ قطريةٌ ؟
أم هذه هزيمةٌ قومية ؟
أم هذه هزيمتي ؟؟

التأشيرة

1

في مركزٍ للأمن في إحدى البلاد الناميه
وقفت عِند نقطة التفتيش،
ما كان معي شيءٌ سوى أحزانيه
كانت بلادي بعد ميلٍ واحد
وكان قلبي في ضلوعي راقصاً
كأنه حمامةٌ مشتاقةٌ للساقيه.
يحلم بالأرض التي لعبت في حقولها
وأطعمتني قمحها، ولوزها، وتينها
وأرضعتني العافيه..

2

وقفت في الطابور،
كان الناس يأكلون اللب.. والترمس..
كانوا يطرحون البول مثل الماشيه
من عهد فِرعون.. إلى أيامنا
هناك دوماً حاكمٌ بأمره
وأمةٌ تبول فوق نفسها كالماشيه..

3

وليس في الكونغو.. ولا تانزانيا
الشمس كانت تلبس الكاكي،
والأشجار كانت تلبس الكاكي،
والوردة كانت تلبس الملابس المرقطه..
كان هناك الخوف من أمامنا

والخوف من ورائنا
وضابطٌ مدججٌ بخمس نجماتٍ.. وبالكراهيه
يجرنا من خلفه كأننا غنم
من يوم قابيل إلى أيامنا
كان هناك قاتلٌ محترفٌ
وأمةٌ تسلخ مثل الماشيه...

4

في مركز العذاب، حيث الشمس لا تدور..
وحيث لا يبقى من الإنسان غير الليف والقشور
يمتد خطٌ أحمرٌ..
ما بين برلينين، بيروتين، صنعاءين،
مكتين، مصحفين، قبلتين،
مذهبين،
لهجتين،
حارتين،
شارتي مرور..
الرعب كان سيد الفصول
والأرض كانت تشحذ الأمطار من أيلول
ونحن كنا نشحذ الأمر الهمايوني بالدخول..
واعجبي...
أكلما استقل شعبٌ من شعوب آسيا
يسوقه أبطاله للذبح مثل الماشيه؟؟

5

أين أنا؟
كل العلامات تقول:
كل الإهانات التي نسمعها

بضاعةٌ قديمةٌ تنتجها «أعرابيا».
كل الدروب، كلها
تفضي لسيف الطاغيه..
أين أنا؟
ما بين كل شارعٍ وشارعٍ..
قامت بلد..
ما بين كل حائطٍ وحائطٍ..
قامت بلد..
ما بين كل نخلةٍ وظلها..
قامت بلد..
ما بين كل امرأةٍ وطفلها..
قامت بلد..
يا خالقي: يا راسم الأفق ، ويا مهندس السماء
هل ذلك الثقب الذي ليس يرى
هو البلد؟؟؟

6

في مركز الجنون ، والصداع، والسعال، والبلهارسيا
وقفت شهراً كاملاً
وقفت عاماً كاملاً
أمام أبواب زعيم المافيا..
أشحذ منه الإذن بالمرور..
أشحذ منه منزل الطفوله
والورد، والزنبق، والأضاليا
أشحذ منه غرفتي
والحبر، والأقلام ، والطبشور
قلت لنفسي وأنا..
أواجه البنادق الروسية المخرطشه

واعجبي .. واعجبي..
هل أصبح الله زعيم المافيا؟؟

7

في مركزٍ للخوف لا اسم له
لكنه..
ينبت مثل الفطرِ في كل زوايا الباديه
وقفت عمراً كاملاً
ووافقوا على دخولي وطني
عرفت أن الوطن الغالي الذي عشقته
ما عاد في الجغرافيا..
ما عاد في الجغرافيا...
ما عاد في الجغرافيا...
وعندما أصبحت شيخاً طاعناً
ووافقوا على دخولي وطني
عرفت أن الوطن الغالي الذي عشقته
ما عاد في الجغرافيا..
ما عاد في الجغرافيا...
ما عاد في الجغرافيا...

وطن بالإيجار

1

كل نهارٍ ،
أجلس عند صديقي الإيطالي «روبرتو»
كل نهار .
أحمل تخطيطات الشعر ،
وآكلها بدل الإفطار ...
صار «روبرتو» يعرف وجهي
صار يقيس مساحة حزني بالأمتار ..

2

كل نهارٍ ،
أمشي فوق الورق اليابس ،
كل نهار .
أتحدث في لغة الأعشاب ،
وأفهم إحساس الأشجار
كل نهارٍ ،
أصنع أملاً من ألوان الطيف ،
وأصنع شعباً من أزهار ...
كل نهارٍ ،
أنوي فيه ركوب البحر ..
تقول الشرطة : لا إبحار
كل نهارٍ ،
أبني وطناً أسكن فيه
فتجرفه الأمطار ...

3

كل نهار ،
ألبس ذات المعطف ،
أقطع ذات الشارع ،
أشغل ذات المقعد ،
أطلب ذات القهوة ،
أشري صحفاً من بلدان الشرق الأوسط
لا أتحمس كي أفتحها
فالأخبار هي الأخبار
في القرن الأول .. أو في القرن العاشر ..
الأخبار هي الأخبار ..

4

كل نهار ،
أجلس عند صديقي الإيطالي «روبرتو»
كل نهار.
أطلب قدحاً من كونياك فرنسا
أبلعه سيفاً من نار
أكتب فوق الفوطة شعراً
تبكي منه فتاة البار ...

5

كل نهار ،
تجلس فوق سريري امرأةٌ
تخطفها مني الأقدار
كل امرأة تحمل طفلاً مني
يضربها الإعصار

كل نهار ،
أكتب للُحرية شعراً
يمنعه حتى الأحرار ...

6

يا سيدتي :
إن النملة تملك وطناً .
إن الدودة تملك وطناً .
إن الضفدع يملك وطناً .
إن الفأرة تملك وطناً .
إن الأرنب يملك وطناً .
والسحلية ، والصرصار .
وأنا ما ملكني أحدٌ وطناً
ولذا ، أسكن يا سيدتي
وطناً بالإيجار ..

منشورَاتٌ فِدَائيّة على جُدْرَانِ إسْرائيل

1

لن تجعلوا من شعبنا
شعب هنود حمر..
فنحن باقونً هنا..
في هذه الأرض التي تلبس في معصمها
إسوارةً من زهر
فهذه بلادنا..
فيها وجدنا منذ فجر العمر
فيها لعبنا، وعشقنا، وكتبنا الشعر
مشرّشون نحن في خلجانها
مثل حشيش البحر..
مشرّشون نحن في تاريخها
في خبزها المرقوق، في زيتونها
في قمحها المصفر
مشرشون نحن في وجدانها
باقون في آذارها
باقون في نيسانها
باقون كالحفر على صلبانها
باقون في نبيها الكريم، في قرآنها..
وفي الوصايا العشر..

2

لا تسكروا بالنصر...
إذا قتلتم خالداً.. فسوف يأتي عمرو
وإن سحقتم وردةً..
فسوف يبقى العطر

3

لأن موسى قطعت يداه..
ولم يعد يتقن فن السحر..
لأن موسى كسرت عصاه
ولم يعد بوسعه شق مياه البحر
لأنكم لستم كأمريكا.. ولسنا كالهنود الحمر
فسوف تهلكون عن آخركم
فوق صحاري مصر...

4

المسجد الأقصى شهيدٌ جديد
نضيفه إلى الحساب حسابه العتيق
وليست النار، وليس الحريق
سوى قناديلٍ تضيء الطريق

5

من قصب الغابات
نخرج كالجن لكم.. من قصب الغابات
من رزم البريد، من مقاعد الباصات
من علب الدخان، من صفائح البنزين، من شواهد الأموات
من الطباشير، من الألواح، من ضفائر البنات
من خشب الصلبان، ومن أوعية البخور، من أغطية الصلاة
من ورق المصحف نأتيكم
من السطور والآيات...
فنحن مبثوثون في الريح، وفي الماء، وفي النبات
ونحن معجونون بالألوان والأصوات..
لن تفلتوا.. لن تفلتوا..
فكل بيتٍ فيه بندقيه
من ضفَة النيل إلى الفرات

6

لن تستريحوا معنا..
كل قتيلٍ عندنا
يموت آلافاً من المرات...

7

إنتبهوا.. إنتبهوا...
أعمدة النور لها أظافر
وللشبابيك عيونٌ عشر
والموت في انتظاركم في كل وجهٍ عابرٍ...
أو لفتة.. أو خصر
الموت مًخبوءٌ لكم.. في مشط كل امرأةٍ..
وخصلةٍ من شعر..

8

يا آل إسرائيل.. لا يأخذكم الغرور
عقارب الساعات إن توقفت، لا بد أن تدور..
إن اغتصاب الأرض لا يخيفنا
فالريش قد يسقط عن أجنحة النسور
والعطش الطويلِ لا يخيفنا
فالماء يبقى دائماً في باطن الصخور
هزمتم الجيوش.. إلا أنكم لم تهزموا الشعور
قطعتم الأشجار من رؤوسها.. وظلت الجذور

9

ننصحكم أن تقرأوا ما جاء في الزبور
ننصحكم أن تحملوا توراتكم
وتتبعوا نبيكم للطور..
فما لكم خبزٌ هنا.. ولا لكم حضور

من باب كل جامع..
من خلف كل منبرٍ مكسور
سيخرج الحجاج ذاتَ ليلةٍ.. ويخرج المنصور

10

انتظرونا دائماً..
في كل ما لا ينتظر
فنحن في كل المطارات، وفي كل بطاقات السفر
نطلع في روما، وفي زوريخ، من تحت الحجر
نطلع من خلف التماثيل وأحواض الزهر..
رجالنا يأتون دون موعد
في غضب الرعد، وزخاتِ المطر
يأتون في عباءة الرسول، أو سيف عمر..
نساؤنا.. يرسمن أحزان فلسطين على دمع الشجر
يقبرن أطفال فلسطين، بوجدان البشر
يحملن أحجار فلسطين إلى أرض القمر..

11

لقد سرقتم وطناً..
فصفق العالم للمغامره
صادرتم الألوف من بيوتنا
وبعتم الألوف من أطفالنا
فصفق العالم للسماسره..
سرقتم الزيت من الكنائس
سرقتم المسيح من بيته في الناصره
فصفق العالم للمغامره
وتنصبون مأتماً..
إذا خطفنا طائره

12

تذكروا.. تذكروا دائماً
بأن أمريكا – على شأنها –
ليست هي الله العزيز القدير
وأن أمريكا – على بأسها –
لن تمنع الطيور أن تطير
قد تقتل الكبير.. بارودةٌ
صغيرةٌ.. في يد طفلٍ صغير

13

ما بيننا.. وبينكم.. لا ينتهي بعام
لا ينتهي بخمسة.. أو عشرة.. ولا بألف عام
طويلةٌ معارك التَحرير كالصِيام
ونحن باقون على صدوركم..
كالنقش في الرخام..
باقون في صوت المزاريب.. وفي أجنحة الحمام
باقون في ذاكرة الشمس، وفي دفاتر الأيام
باقون في شيطنة الأولاد.. في خربشة الأقلام
باقون في الخرائط الملونه
باقون في شعر امرئ القيس..
وفي شعر أبي تمام..
باقون في شفاه من نحبهم
باقون في مخارج الكلام..

14

موعدنا حين يجيء المغيب
موعدنا القادم في تل أبيب
«نصرٌ من الله وفتحٌ قريب»

15

ليس حزيران سوى يوم من الزمان
وأجمل الورود ما ينبتُ في حديقة الأحزان..

16

للحزن أولادٌ سيكبرون..
للوجع الطويل أولادٌ سيكبرون
للأرض، للحارات، للأبواب، أولادٌ سيكبرون
وهؤلاء كلهم..
تجمعوا منذ ثلاثين سنه
في غرف التحقيق، في مراكز البوليس، في السجون
تجمعوا كالدمع في العيون
وهؤلاء كلهم..
في أي.. أي لحظة
من كل أبواب فلسطين سيدخلون..

17

..وجاء في كتابه تعالى:
بأنكم من مصر تخرجون
وأنكم في تيهها، سوف تجوعون، وتعطشون
وأنكم ستعبدون العجل دون ربكم
وأنكم بنعمة الله عليكم سوف تكفرون
وفي المناشير التي يحملها رجالنا
زدنا على ما قاله تعالى:
سطرين آخرين:
ومن ذرى الجولان تخرجون
وضفة الأردنّ تخرجون
بقوة السلاح تخرجون..

18

سوف يموت الأعور الدجال

سوف يموت الأعور الدجال

ونحن باقون هنا، حدائقاً، وعطر برتقال

باقون فيما رسم الله على دفاتر الجبال

باقون في معاصر الزيت.. وفي الأنوال

في المد.. في الجزر.. وفي الشروق والزوال

باقون في مراكب الصيد، وفي الأصداف، والرمال

باقون في قصائد الحب، وفي قصائد النضال

باقون في الشعر، وفي الأزجال

باقون في عطر المناديل..

في «الدبكة» و «الموال»..

في القصص الشعبي، والأمثال

باقون في الكوفية البيضاء، والعقال

باقون في مروءة الخيل، وفي مروءة الخيال

باقون في «المهباج» والبن، وفي تحية الرجال للرجال

باقون في معاطف الجنود، في الجراح، في السعال

باقون في سنابل القمح، وفي نسائم الشمال

باقون في الصليب..

باقون في الهلال..

في ثورة الطلاب، باقون، وفي معاول العمال

باقون في خواتم الخطبة، في أسرة الأطفال

باقون في الدموع..

باقون في الآمال

19

تسعون مليوناً من الأعراب خلف الأفق غاضبون

يا ويلكم من ثأرهم..

يوم من القمقم يطلعون..

20

لأن هارون الرشيد مات من زمان
ولم يعد في القصر غلمانٌ، ولا خصيان
لأننا مَن قتلناه، وأطعمناه للحيتان
لأن هارون الرشيد لم يعد إنسان
لأنه في تخته الوثير لا يعرف ما القدس.. وما بيسان
فقد قطعنا رأسه، أمس، وعلقناه في بيسان
لأن هارون الرشيد أرنبٌ جبان
فقد جعلنا قصره قيادة الأركان..

21

ظل الفلسطيني أعواماً على الأبواب..
يشحذ خبز العدل من موائد الذئاب
ويشتكي عذابه للخالق التواب
وعندما.. أخرج من إسطبله حصاناً
وزيتَ البارودة الملقاة في السرداب
أصبح في مقدوره أن يبدأ الحساب..

22

نحن الذين نرسم الخريطه
ونرسم السفوح والهضاب..
نحن الذين نبدأ المحاكمه
ونفرض الثواب والعقاب..

23

العرب الذين كانوا عندكم مصدري أحلام
تحولوا بعد حزيران إلى حقل من الألغام
وانتقلت «هانوي» من مكانها..
وانتقلت فيتنام..

24

حدائق التاريخ دوماً تزهرُ..
ففي ذرى الأوراس قد ماج الشقيق الأحمر..
وفي صحاري ليبيا.. أورق غصنٌ أخضر..
والعرب الذين قلتم عنهمُ: تحجروا
تغيروا..
تغيروا

25

أنا الفلسطينيُّ بعد رحلة الضياع والسراب
أطلع كالعشب من الخراب
أضيء كالبرق على وجوهكم
أهطل كالسحاب
أطلع كل ليلة..
من فسحة الدار، ومن مقابض الأبواب
من ورق التوت، ومن شجيرة اللبلاب
من بركة الدار، ومن ثرثرة المزراب
أطلع من صوت أبي..
من وجه أمي الطيب الجذاب
أطلع من كل العيون السود والأهداب
ومن شبابيك الحبيبات، ومن رسائل الأحباب
أفتح باب منزلي.
أدخله. من غير أن أنتظر الجواب
لأنني أنا.. السؤال والجواب

26

محاصرون أنتم بالحقد والكراهيه
فمن هنا جيش أبي عبيدةٍ
ومن هنا معاويه
سلامكم ممزقٌ..
وبيتكم مطوقٌ
كبيت أي زانيه..

27

نأتي بكوفياتنا البيضاء والسوداء
نرسم فوق جلدكم إشارة الفداء
من رحِم الأيام نأتي كانبثاق الماء
من خيَمة الذل التي يعلكها الهواء
من وجع الحسين نأتي.. من أسى فاطمة الزهراء
من أحد نأتي.. ومن بدر.. ومن أحزان كربلاء
نأتي لكي نصحح التاريخَ والأشياء
ونطمس الحروف..
في الشوارع العبرية الأسماء..

أطفال الحجارة

بهروا الدنيا..
وما في يدهم إلا الحجاره..
وأضاؤوا كالقناديل، وجاؤوا كالبشاره
قاوموا.. وانفجروا.. واستشهدوا..
وبقينا دبباً قطبيةً
صفّحت أجسادها ضد الحراره..
قاتلوا عنا إلى أن قُتلوا..
وجلسنا في مقاهينا.. كبصاق المحارة
واحدٌ يبحث منا عن تجارة..
واحدٌ.. يطلب ملياراً جديداً..
وزواجاً رابعاً..
ونهوداً صقلتهن الحضارة..
واحدٌ.. يبحث في لندن عن قصرٍ منيفٍ
واحدٌ.. يعمل سمسار سلاح..
واحدٌ.. يطلب في البارات ثاره..
واحدٌ.. يبحث عن عرشٍ وجيشٍ وإمارة..
آه.. يا جيل الخيانات..
ويا جيل العمولات..
ويا جيل النفايات
ويا جيل الدعارة..
سوف يجتاحك –مهما أبطأ التاريخ
أطفال الحجاره..

دكتوراة شرف في كيمياء الحجر

يرمي حجراً..
أو حجرين.
يقطع أفعى إسرائيل إلى نصفين
يمضغ لحم الدبابات،
ويأتينا..
من غير يدَين..
في لحظات..
تظهر أرضٌ فوق الغيم،
ويولد وطنٌ في العينين
في لحظات..
تظهر حيفًا.
تظهر يافا.
تأتي غزة في أمواج البحر
تضيء القدس،
كمئذنة بين الشفتين..
يرسم فَرساً..
من ياقوت الفجر..
ويدخل..
كالإسكندر ذي القرنين.
يخلع أبواب التاريخ،
ويُنهي عصر الحشاشين،
ويقفل سوق القوادين،
ويقطع أيدي المرتزقين،
ويلقي تركة أهل الكهف،
عن الكتفين..

في لحظات..
تحبل أشجار الزيتون،
يدرّ حليبٌ في الثديين..
يرسم أرضاً في طبريا
يزرع فيها سنبلتين
يرسم بيتاً فوق الكرمل،
يرسم أماً.. تطحن بناً عند الباب،
وفنجانين..
وفي لحظات.. تهجم رائحة الليمون،
ويولد وطنٌ في العينين
يرمي قمراً من عينيه السوداوين،
وقد يرمي قمرين..
يرمي قلماً.
يرمي كتباً.
يرمي حبراً.
يرمي صمغاً.
يرمي كراسات الرسم
وفرشاة الألوان
تصرخ مريم: «يا ولداه..»
وتأخذه بين الأحضان.
يسقط ولدٌ
في لحظات..
يولد آلافُ الصبيان
يكسف قمرٌ غزاويٌ
في لحظات...
يطلع قمرٌ من بيسان
يدخل وطنٌ للزنزانة،
يولد وطنٌ في العينين..

ينفض عن نعليه الرمل..
ويدخل في مملكة الماء.
يفتح نفقاً آخر.
يبدع زمناً آخر.
يكتب نصاً آخر.
يكسر ذاكرة الصحراء.
يقتل لغةً مستهلكةً
منذ الهمزة.. حتى الياء..
يفتح ثقباً في القاموس،
ويعلن موت النحو.. وموت الصرف..
وموت قصائدنا العصماء..
يرمي حجراً.
يبدأ وجه فلسطين
يتشكل مثل قصيدةِ شعر..
يرمي الحجر الثاني
تطفو عكا فوق الماء قصيدة شعر
يرمي الحجر الثالث
تطلع رام الله بنفسجةً من ليل القهر
يرمي الحجر العاشر
حتى يظهر وجه الله..
ويظهر نور الفجر..
يرمي حجر الثورة
حتى يسقط آخر فاشستي
من فاشست العصر
يرمي..
يرمي..
يرمي..
حتى يقلع نجمة داوودِ

بيديه،
ويرميها في البحر..
تسأل عنه الصحف الكبرى:
أيّ نبي هذا القادم من كنعان؟
أيّ صبيٍّ؟
هذا الخارج من رحم الأحزان؟
أي نبات أسطوري
هذا الطالع من بين الجدران؟
أي نهورٍ من ياقوت
فاضتْ من ورق القرآن؟
يسأل عنه العرافون.
ويسأل عنه الصوفيون.
ويسأل عنه البوذيون.
ويسأل عنه ملوك الأنس،
ويسأل عنه ملوك الجان.
من هو هذا الولد الطالع
مثل الخوخ الأحمر..
من شجر النسيان؟
من هو هذا الولد الطافش
من صور الأجداد..
ومن كذب الأحفاد..
ومن سروال بني قحطان؟
من هو هذا الولد الباحث
عن أزهار الحب..
وعن شمس الإنسان؟
من هو هذا الولد المشتعل العينين..
كآلهة اليونان؟
يسأل عنه المضطهدون..

ويسأل عنه المقموعون.
ويسأل عنه المنفيون.
وتسأل عنه عصافيرٌ خلف القضبان.
من هو هذا الآتي..
من أوجاع الشمع..
ومن كتب الرهبان؟
من هو هذا الولد
التبدأ في عينيه..
بدايات الأكوان؟
من هو؟
هذا الولد الزارع
قمح الثورة..
في كل مكان؟
يكتب عنه القصصيون،
ويروي قصته الركبان.
من هو هذا الطفل الهارب من شلل الأطفال،
ومن سوس الكلمات؟
من هو؟
هذا الطافش من مزبلة الصبر..
ومن لغة الأموات؟
تسأل صحف العالم،
كيف صبيٌ مثل الوردة..
يمحو العالم بالمحاة؟؟
تسأل صحفٌ في أمريكا
كيف صبيٌ غزاويٌ،
حيفاويٌ،
عكاويٌ،
نابلسيٌ،
يقلب شاحنة التاريخ،
ويكسر بللور التوراة؟؟؟

القدس

بكيتُ.. حتى انتهت الدموع
صليت.. حتى ذابت الشموع
ركعت.. حتى ملني الركوع
سألت عن محمد، فيك وعن يسوع
يا قدس، يا مدينَةً تفوح أنبياء
يا أقصر الدروب بين الأرض والسماء
يا قدس، يا منارة الشرائع
يا طفلةً جميلةً محروقة الأصابع
حزينةٌ عيناك، يا مدينة البتول
يا واحةً ظليلةً مرّ بها الرسول
حزينةٌ حجارة الشوارع
حزينةٌ مآذن الجوامع
يا قدس، يا جميلةً تلتف بالسواد
من يقرع الأجراس في كنيسة القيامة؟
صبيحة الآحاد..
من يحمل الألعاب للأولاد؟
في ليلة الميلاد..
يا قدس، يا مدينة الأحزان
يا دمعةً كبيرةً تجول في الأجفان
من يوقف العدوان؟
عليك، يا لؤلؤة الأديان
من يغسل الدماء عن حجارة الجدران؟
من ينقذ الإنجيل؟
من ينقذ القرآن؟
من ينقذ المسيح ممن قتلوا المسيح؟

من ينقذ الإنسان؟
يا قدس.. يا مدينتي
يا قدس.. يا حبيبتي
غداً.. غداً.. سيزهر الليمون
وتفرح السنابل الخضراء والزيتون
وتضحك العيون..
وترجع الحمائم المهاجرة..
إلى السقوف الطاهرة
ويرجع الأطفال يلعبون
ويلتقي الآباء والبنون
على رباك الزاهرة..
يا بلدي..
يا بلد السلام والزيتون

قانا

1

وجه قانا شاحب اللون كما وجه يسوع.
و هواء البحر في نيسان،
أمطار دماء، و دموع...

2

دخلوا قانا على أجسادنا
يرفعون العلم النازي في أرض الجنوب.
و يعيدون فصول المحرقة..
هتلر أحرقهم في غرف الغاز
و جاؤوا بعده كي يحرقونا..
هتلر هجرهم من شرق أوروبا..
و هم من أرضنا قد هجرونا.
هتلر لم يجد الوقت لكي يمحقهم
و يريح الأرض منهم..
فأتوا من بعده ..كي يمحقونا!!.

3

دخلوا قانا..كأفواج ذئاب جائعة.
يشعلون النار في بيت المسيح.
و يدوسون على ثوب الحسين..
و على أرض الجنوب الغالية..

4

قصفوا الحنطة، و الزيتون، و التبغ،

و أصوات البلابل..
قصفوا قدموس في مركبه..
قصفوا البحر..و أسراب النوارس..
قصفوا حتى المشافي..و النساء المرضعات..
و تلاميذ المدارس.
قصفوا سحر الجنوبيات
و اغتالوا بساتين العيون العسلية!..

5
و رأينا الدمع في جفن علي.
و سمعنا صوته و هو يصلي ...
تحت أمطار سماء دامية..

6
كل من يكتب عن تاريخ «قانا»
سيسميها على أوراقه:
«كربلاء الثانية»!!.

7
كشفت قانا الستائر..
و رأينا أمْريكا ترتدي معطف حاخام يهودي عتيق..
و تقود المجزرة..
تطلق النار على أطفالنا دون سبب..
و على زوجاتنا دون سبب.
و على أشجارنا دون سبب.
و على أفكارنا دون سبب.
فهل الدستور في سيدة العالم..
بالعبريّ مكتوب..لإذلال العرب؟؟

8

هل على كل رئيس حاكم في أمريكا؟
إن أراد الفوز في حلم الرئاسة..
قتْلَنا، نحن العرب؟

9

انتظرنا عربياً واحداً.
يسحب الخنجر من رقبتنا..
انتظرنا هاشمياً واحداً..
انتظرنا قرشياً واحداً..
دونكشوتاً واحداً..
قبضاياً واحداً لم يقطعوا شاربه...
انتظرنا خالداً..أو طارقاً..أو عنترة..
فأكلنا ثرثرة و شربنا ثرثرة..
أرسلوا فاكسا إلينا..واستلمنا نصه
بعد تقديم التعازي و انتهاء المجزرة!!.

10

ما الذي تخشاه إسرائيل من صرخاتنا؟
ما الذي تخشاه من «فاكساتنا»؟
فجهاد الفاكس من أبسط أنواع الجهاد..
فهو نص واحد نكتبه
لجميع الشهداء الراحلين.
و جميع الشهداء القادمين!!.

11

ما الذي تخشاه إسرائيل من ابن المقفع؟

و جرير ..و الفرزدق؟
و من الخنساء تلقي شعرها عند باب المقبرة..
ما الذي تخشاه من حرق الإطارات..
و توقيع البيانات..و تحطيم المتاجر..
و هي تدري أننا لم نكن يوماً ملوك الحرب..
بل كنا ملوك الثرثرة...

12

ما الذي تخشاه من قرقعة الطبل..
و من شق الملاءات..و من لطم الخدود؟
ما الذي تخشاه من أخبار عاد و ثمود؟؟

13

نحن في غيبوبة قومية
ما استلمنا منذ أيام الفتوحات بريداً...

14

نحن شعب من عجين.
كلما تزداد إسرائيل إرهاباً و قتلاً..
نحن نزداد ارتخاء ..و برودا..

15

وطنٍ يزداد ضيقاً.
لغة قطرية تزداد قبحاً.
وحدة خضراء تزداد انفصالاً.
و حدود كلما شاء الهوى تمحو حدودا!!

16

كيف إسرائيل لا تذبحنا ؟
كيف لا تلغي هشاما، و زياداً، و الرشيدا؟
و بنو تغلب مشغولون في نسوانهم..
و بنو مازن مشغولون في غلمانهم..
و بنو هاشم يرمون السراويل على أقدامها..
و يبيحون شفاها ..و نهودا!!.

17

ما الذي تخشاه إسرائيل من بعض العرب
بعد ما صاروا يهودا؟؟...

يا تلاميذ غزةِ علّمونا ...

يا تلاميذ غزة
علمونا
بعضَ ما عندكم
فنحن نسينا
علمونا
بأن نكون رجالاً
فلدينا الرجال
صاروا عجينا
علمونا
كيف الحجارة تغدو
بين أيدي الأطفال
ماساً ثميناً
كيف تغدو
دراجة الطفل لغما
وشريط الحرير
يغدو كميناً
كيف مصاصة الحليب
إذا ما اعتقلوها
تحولتْ سكيناً
يا تلاميذ غزة
لا تبالوا
بإذاعاتنا
ولا تسمعونا
اضربوا

اضربوا
بكل قواكم
واحزموا أمركم
ولا تسألونا
نحن أهل الحساب
والجمع
والطرح
فخوضوا حروبكم
واتركونا
إننا الهاربون
من خدمة الجيش
فهاتوا حبالكم
واشنقونا
نحن موتى
لا يملكون ضريحاً
ويتامى
لا يملكون عيوناً
قد لزمنا جحورنا
وطلبنا منكم
أن تقاتلوا التنيّنا
قد صغرنا أمامكم
ألفَ قرن
وكبرتم
خلال شهر قرونا
يا تلاميذ غزة
لا تعودوا
لكتاباتنا ولا تقرأونا

نحن آباؤكم
فلا تشبهونا
نحن أصنامكم
فلا تعبدونا
نتعاطى
القات السياسي
والقمع
ونبني مقابراً
وسجونا
حررونا
من عقدة الخوف فينا
واطردوا
من رؤوسنا الأفيونا
علمونا
فن التشبث بالأرض
ولا تتركوا
المسيح حزينا
يا أحباءنا الصغار
سلاماً
جعل الله يومكم
ياسمينا
من شقوق الأرض الخراب
طلعتم
وزرعتم جراحنا
نسرينا
هذه ثورة الدفاتر
والحبر

فكونوا على الشفاه
لحونا
أمطِرونا
بطولة وشموخا
واغسلونا من قبحنا
اغسلونا
لا تخافوا موسى
ولا سحر موسى
واستعدوا
لتقطفوا الزيتونا
إن هذا العصر اليهودي
وهمٌ
سوف ينهار
لو ملكنا اليقينا
يا مجانين غزة
ألف أهلا
بالمجانين
إن همُ حررونا
إن عصر العقل السياسي
ولى من زمان
فعلمونا الجنونا

نزار قباني
أمير الحرية وفارس العشق

د. حسام الخطيب

لندن ١٥/٣/١٩٩٧

أخي الغالي الدكتور حسام الخطيب

عن طريق جريدة (الراية)

قطر

حبي وأشواقي.

فتحتُ عينيَّ اليوم على القسم الأول من مقالتك الشيقة في جريدة (الحياة) السبت ١٥/٣/١٩٩٧ الصفحة ٢١

سعدتُ جداً بنشرها في مكان متميز.. وعلى مساحة متميزة.

فأرجو أن تلحق بنسختك. قبل أن تطير الجريدة....

لك الشكر العميق. والحب المقيم

أخوك

نزار قباني

كل من يطَّلع على الرسائل القليلة المتبادلة بيني وبين صديقي الغالي الشاعر نزار قباني مالئ الدنيا وشاغل أهل الثقافة وغير أهل الثقافة على امتداد النصف الثاني من القرن العشرين، لابد أن يظن أنني ونزار كنا أبناء حارة واحدة. ولكن الحقيقة تفيد أن لقاءنا الشخصي كان متأخراً بعض الشيء ومتقطعاً.

ويشتمل الكتاب على بضع رسائل جرى تبادلها مع نزار في أعقاب زيارته للدوحة، وذلك الى جانب بعض المكالمات الهاتفية، وتكشف هذه الرسائل عن وفائه ومروءته، وكذلك جمال خطه الذي يعكس التماع شخصيته وألق نثره.



ISBN: 978-614-02-1078-3

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING
editions.difaf@gmail.com